سيرة السلطان

محمد الفاتح

عبد المنعم الهاشمي





بسم الله الرحمن الرحيم





دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

إهداء

إلى بعض المسلمين الذي ظنوا بأنفسهم الظنون، وخُدِعوا بإعلام يقول بضعفهم ودنوِّهم، أهدي لهم هذه الصفحات الطيبة والسطور الصادقة - إن شاء الله -.

عبد المنعم الهاشمي



مقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين المقتدين بالصالحين من عباده، والصلاة والسلام على محمد الأمين وصحبه المخلصين المجاهدين.

أما بعد..

فإن سيرة محمد الفاتح تبعث الأمل في النفوس التي كادت أن تنهزم وتضعف أمام هذا الغثاء الذي يأتينا من هنا وهناك.

وسيرة محمد الفاتح لوحة تبعث التفاؤل في نفوس الصابرين على البأساء والضراء في بلاد المسلمين.

تحية لمحمد الفاتح بين هذه السطور الموثقة من مصاردها، ونسأل الله أن يرزقنا الأجر والثواب؛ لأن أيام محمد الفاتح هي من أيام الله التي لا تُنسى، فالسمع والطاعة لقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ (إبراهيم: ٥)، فإلى هذه الأيام.

عبد المنعم الهاشمي

أقوال في البداية

* «لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمري أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[(١)] .

* كان من أعاظم سلاطين بني عثمان، وهو الملك الفاضل النبيل، العظيم الجليل، أعظم الملوك جهادًا وأقواهم إقدامًا واجتهادًا، وأثبتهم جأشًا وفؤادًا، وأكثرهم توكلاً على الله واعتمادًا، وهو الذي أسس ملك بني عثمان، وقنَّن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان، وله مناقب جميلة، ومزايا فاضلة جليلة، وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام، ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام. («شذرات الذهب» لابن العماد)

قال الفاتح يوصي ابنه: «خذ مني هذه العبرة: حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكي، واحذو حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله، ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو، فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك».

المولد والنشأة ١٤٢٢م- ١٤٨١م

ولد السلطان محمد الفاتح في سنة ٨٣٣هـ[(٢)]، وكان ميلاده يوافق الثلاثون من شهر مارس عام ١٤٢٢م. وكان ميلاده بعد بداية النهاية للعصور الوسطى[(٣)]، إذا عرفنا أن العصور الوسطى انتهت بفتح القسطنطينية وبدأ العصر الحديث مع فتحها في عام ١٤٥٣م على يد هذا السلطان.

(١) رواه الإمام أحمد، والحاكم، والحديث ضعيف السند، وإن كانت بشارة الفتح ثابتة.
(٢) «التحفة الحليمية» (ص٩١) طبعة مؤسسة الكتب الثقافية.
(٣) العصور الوسطى، أو عصر النهضة، أو العصر الحديث .. كلها مصطلحات تنطبق على أوروبا وحدها، ولا يجوز للمسلمين أن يطلقوها هكذا.

وقد خضع السلطان محمد الفاتح في طفولته لنظام تربية صارم شأن أي أمير عثماني، وكان ذلك تحت إشراف مجموعة من علماء عصره المعروفين، وقد أخضعه شيوخه إلى دراسة أكاديمية للعلوم العصرية ـ آنذاك ـ من رياضيات وفلك وتاريخ ودراسات عسكرية نظرية وتطبيقية[١].

وفي ولاية والده مراد الثاني فإن السلطان محمد الفاتح اشترك في الحروب التي كان يشنّها والده ضد أوربا أو حين كان يتصدى لهم إذا اعتدوا على الدولة العثمانية.

وعين محمد الفاتح أميرًا على مغنيسيا تحت إشراف مجموعة من علماء الدين، وكان الفاتح محظوظًا إذ كان المشرفون عليه مجموعة من أعظم علماء عصره وفي مقدمتهم الشيخ آق شمس الدين والملا الكوراني (عالم الدين عند العثمانيين الأوائل، وكان الكوراني هذا عالمًا موسوعيًا في شتى علوم المعرفة في عصره.

وقد تأثر محمد الفاتح بمجموعة العلماء هذه، التي ساهمت في تشكيل شخصية الأمير الصغير، فقد نجح هؤلاء العلماء في تشكيل اتجاهات محمد الفاتح الثقافية والسياسية والعسكرية.

وكان الشيخ آق شمس الدين صارمًا مع الأمير محمد الفاتح حتى إن السلطان محمد الفاتح قال وهو سلطان لأحد وزرائه عن شيخه آق شمس الدين: «إن احترامي لهذا الشيخ احترام يأخذ بمجامع نفسي، وأنا ماثل في حضرته مضطربًا ويداي ترتعشان»[٢].

---

(١) د/ محمد حرب «العثمانيون في التاريخ» (ص٨).
(٢) «العثمانيون» د/ محمد حرب.

ودرس السلطان محمد الفاتح اللغات الإسلامية الثلاثة، وهي العربية والفارسية والتركية، وقد كانت هذه اللغات ضرورة لكل مثقف في هذا العصر الذي عاش فيه محمد الفاتح.

وكان محمد الفاتح شاعرًا له ديوان شعر بالتركية، وله بيت مشهور يقول فيه: «نيتي هي الامتثال للأمر الإلهي، جاهدوا في سبيل الله، وحماسي إنما هو حماس في سبيل الله».

* ولم يكتف محمد الفاتح باللغات الإسلامية الثلاث، بل أضاف إليها ثلاثة أخرى هي اللاتينية واليونانية والصربية - وبذلك جمع ست لغات - ولاشك أن لهذه اللغات أهمية كبيرة لأمير يعد لقيادة دولة عظمى كالدولة العثمانية.

وتعدُّ فترة إمارة محمد الفاتح في مغنيسيا من الفترات الهامة في حياته، وذلك بفضل مجموعة من أساتذته، فقد أصبح بفضلهم من أكثر الأمراء العثمانين وعيًا ومعرفة في دراسة علوم التاريخ والجغرافيا والعلوم العسكرية، خاصة وأن أساتذته وجهوا اهتمامه إلى دراسة الشخصيات الكبيرة التي أثرت في مجرى التاريخ، وأبانوا له عن جوانب عظيمة في تلك الشخصيات، كما أوضحوا له نقاط الضعف فيها أملاً في أن يكون أميرهم ذات يوم أكثر الحكام عبقرية، وقد لعب الشيخ آق شمس الدين دورًا كبيرًا في تكوين شخصية محمد الفاتح، ويذكر المؤرخون[1]، أنه استطاع أن يبث فيه منذ صغره أمرين هما اللذان جعلاً منه فاتحًا، وهما:

- مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

---

(١) د/ محمد حرب - في كتابه - «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٦٩).

ـ الإيحاء لمحمد دومًا منذ صغره بأنه هو الأمير المقصود بالحديث النبوي الشريف: «**لتفتحن القسطنطينية؛ فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**»(١).

كانت حياة محمد الفاتح زاخرة بالعلم والحرب، فمن الناحية العلمية كان الفاتح يجيد عدة لغات بجانب لغته التركية، كما ذكرنا، وأضاف إلى ذلك اللغة العبرية.

ولذلك فقد قام محمد الفاتح بتوسيع فكرة المدرسة العثمانية؛ فأنشأ المدارس الكبيرة، وأدخل فيها العلوم العلمية العملية إلى جانب العلوم الدينية، وبفضل الفاتح أصبحت الدولة العثمانية في عهده الدولة الأولى في العالم في بناء السفن والمواد الحربية.

وعرف عن الفاتح حب العلماء واستقدامهم من البلاد الأخرى، ومن أبرز علماء عصره الشيخ آق شمس الدين، والمولى الكوراني، والمولى خسروا وعلى قوشجي، وخواجه زاده، ومصلح الدين أفندي.

وفي عهد السلطان محمد الفاتح، بدأ ضرب النقود الذهبية، ومن دلالات هذا: غنى الدولة العثمانية، وتسامح هذا السلطان تجاه رجال الدين الأجانب مثال بالغ للدلالة على المفهوم الإسلامي الحقيقي في النظر إلى الأقليات الدينية التي تعيش في كنف المسلمين، وكان هذا التسامح في وقت اشتد فيه الصراع المذهبي في أوربا مما كان يدفع الأوربي للاضرار بمن يؤمن بدينه، ويختلف عنه في المذهب(٢).

---

(١) سبق التنويه إليه (ص٦).
(٢) «العثمانيون» د/ محمد حرب (ص٨٢).

ويعرف المؤرخون المهتمون بعهد الفاتح - أن كل حروب محمد الفاتح - وهي كثيرة أنها لم تكن تحمل إلا مفهوم الجهاد الإسلامي، ولقد كان فتح القسطنطينية (استانبول) فتحًا عظيمًا، إلا أنه لم يكن هو الوحيد، بل كان للفاتح سلسلة من الفتوح، ولقد لقبته المصادر الإسلامية بلقب أبي الفتح من كثرتها التي بلغت في عددها أن الأراضي التي فتحها كانت تابعة لسبع عشرة دولة[١].

إصلاحاته الداخلية

عندما ارتقى محمد الفاتح عرش الدولة العثمانية بعد وفاة والدة مراد الثاني كان عمره اثنان وعشرون عامًا، بدأ بإصلاحات داخلية؛ هامة نذكر منها ما يلي:

١ - إعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة.

٢ - عمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ والترف.

٣ - قام بتطوير كتائب الجيش وإعادة تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند.

٤ - زاد مرتبات الجند وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوفرة في ذلك العصر.

٥ - عمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقر بعض الولاة السابقين في أقاليمهم وعزل من ظهر منه تقصيرٌ أو إهمالٌ.

٦ - طوَّر البلاط السلطاني وأمده بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة.

* وقد ساهمت هذه الإصلاحات الداخلية في تفرغه لمواجهة الأوضاع السياسية في أوائل عهده ومنها تطلعاته إلى المناطق المسيحية في أوربا لفتحها ونشر الإسلام فيها.

---

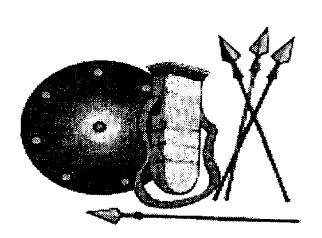
(١) «المصدر السابق» (ص٨٢).

الأوضاع السياسية في بداية عهده

كانت أسيا الصغرى في أوائل عهد محمد الفاتح تحت السيطرة العثمانية باستثناء قسم من بلاد القرمان، ومدينة سينوب ومملكة طرابزون، وأضحت امبراطورية البيزنطيين قاصرة على مدينة القسطنطينية وضواحيها[١]، وفي غير منطقة أسيا الصغرى كان أقليم المورة مقسمًا بين البنادقة وعدة إمارات صغيرة يحكمها حكَّام بيزنطيون أو لاتين.

أما ألبانيا ومنطقة أبيروس، فكانت تحت سيطرة اسكندر بك، أما بلاد البوسنة والصرب فتتمتع باستقلال ذاتي تحت السيادة العثمانية.

وبوجه عام، فإن الضعف الذي وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوربية الأخرى كان من أسباب تحقيق أهداف محمد الفاتح، وكذلك الخلافات الداخلية التي عمت جميع مناطق أوربا ومدنها[٢].



(١) «قصة الحضارة» ول ديورانت، مجلد ٦ (ص٢، ص٣٤) ط. الهيئة المصرية للكتاب.
(٢) «قيام الدولة العثمانية» لعبد اللطيف دهيش، مكتبة النهضة، مكة المكرمة ط١٩٢٥.

فتح القسطنطينية

أولاً - تاريخ مدينة القسطنطينية

القسطنطينية مدينة لها جاذبية على مر التاريخ، وقيل أن سبب ذلك أنها خلفت مدينة روما كعاصمة للامبراطورية الرومانية العظيمة، وانتزعت منها شهرتها العريضة التي كانت تتباهى بها، وليس هذا فحسب، بل وأنها أصبحت في نحو قرن من الزمان تضارع روما بل تفوقها من حيث: جمال خططها، وعظمة صروحها، واتساع رقعتها، ووفرة ثرواتها، وترف مجتمعها[1].

وقد ذكر المؤرخون أن مدينة القسطنطينية قامت عند إنشائها فوق مواقع مدينة أقدم منها ببضعة قرون هي بيزنطية، التي يختلط اسمها مع اسم قسطنطينية، ويطلق في أحيان كثيرة على قسطنطينية ذاتها كعاصمة للدولة، وتغلب صفتها على مرحلة كبيرة من تاريخ الدولة الرومانية الشرقية وتعرف باسم الامبراطورية البيزنطية، ويرجع قيام هذا الثغر (بيزنطية) إلى ٦٥٧ سنة قبل الميلاد، حيث نزلت في هذا الموقع جماعة من المستعمرين اليونانيين بزعامة بحار يسمى (بيزاس) واستقرت به، وسميت المستعمرة الجديدة بيزنطية نسبة إلى مؤسسها بيزاس هذا.

وقد ازدهرت ونمت وأصبحت ميناءً بحريًا، ومركزًا تجاريًا كبيرًا، ولم تكن المدينة الجديدة كبيرة الرقعة، ولكنها كانت تمتاز بجمال الموقع وحصانته، وميناؤها يتسع لرسو أكبر السفن في ذلك الوقت، وكانت بموقعها الفريد في

---

(١) الدكتور/ عبد السلام عبد العزيز فهمي في كتابه: «السلطان محمد الفاتح» (ص٤٣).

مدخل البحر الأسود تشرف على تجارة هذا البحر القديم، كما وأن خليجها الطويل الممتد شمالاً أصبح يعرف بالقرن الذهبي، لوفرة أسماكه وجودتها، ولأنه كان مرسى للسفن المحملة بمختلف السلع والذخائر النفيسة من مختلف بلاد العالم القديم.

وظلت بيزنطية فترة طويلة تتنازع سيادتها الجمهوريات اليونانية خاصة أثينا واسبرطة، ثم استولت عليها مقدونية أيام الاسكندر الأكبر المقدوني في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد، ولما توفي الأسكندر المقدوني استطاعت بيزنطة أن تسترد استقلالها، منتهزة فرصة تفتت الإمبراطورية المقدونية وتقسيمها بين قواد الأسكندر الذي مات فجأة دون أن يرسي قواعد حكم ثابت الأركان، ثم رأت مدينة بيزنطة أن تعقد حلفًا مع روما، ولكن الأخيرة ما لبث أن بسطت سلطانها عليها وجعلتها في عداد مستعمراتها، وفي ١٩٦سنه قبل الميلاد استولي عليها الأمبراطور سفيروس وقتل زعماءها والعديد من أهلها، وبدد تجارتها وهدم مبانيها وقوّض أسوارها، لأنها كانت قد انضمت إلى خصومه خلال الحرب الأهلية التي نشبت بينه وبين منافسه (بسينيوس نيجر) حاكم سوريا[1].

وفي عهد الإمبراطور (كلوديس الثاني) (٢٦٨-٢٧٠م): استطاع أهل بيزنطة أن يدفعوا عنها غزو القوط. وفي خلال الحرب التي نشبت عقب حكم الإمبراطور (ديو كليشيان) بين قسطنطين الأكبر وأعدائه، لجأ (ليكلينوس) - أحد أولئك الخصوم - إلى بيزنطة فحاصره قسطنطين الأكبر بذلك شرق الإمبراطورية الرومانية وغربها، ومنذ أن استولى قسطنطين على مدينة بيزنطة سنة ٣٢٤م انصرف إلى تحصينها، وابتدأ في إقامة سورها، ثم احتفل بوضع

---

(١) المصدر السابق.

خطط العاصمة الرومانية الجديدة سنة ٣٢٨، وكان قسطنطين يتقدم بنفسه موكب المحتفلين سائرًا على قدميه، وفي يده رمح يرسم به حدود المدينة الجديدة ومواقع أسوارها وأبراجها، واختطها فوق موقع المدينة القديمة، لكن رقعتها كانت تفوق رقعة بيزنطية القديمة بكثير، فقد قامت بيزنطة فوق خمس تلال، أما قسطنطينية فقامت على سبع تلال، كان منها الخمسة التي قامت عليها بيزنطة من قبل.

وبذل قسطنطين جهدًا عظيمًا في تشييد عاصمته الجديدة وتجميلها، وحمل إليها كثيرًا من آثار روما وأثينا وصقلية وأنطاكية وغيرها من مدن الإمبراطورية الكبيرة، وغطى تلالها بالأبنية الفخمة، وفي اليوم الحادي عشر من مايو سنة ٣٣٠م افتتحت المدينة الجديدة بصفة رسمية وأصبحت عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وسميت (روما الجديدة) وسُميت في نفس الوقت قسطنطينية تخليدًا لاسم مؤسسها، وكذلك استمر اسم بيزنطة القديم يطلق عليها، وتوِّج الإمبراطور قسطنطين في ميدان الهيدروم، ولا يزال هذا الميدان الشهير قائمًا إلى اليوم يذكرنا بما شهده من تعاقب الأحداث والدهور.

واستغرقت احتفالات التدشين أربعين يومًا، امتزجت بالطقوس الدينية النصرانية، ولأول مرة في تاريخ احتفالات أباطرة روما، وذلك لأن الإمبراطور قسطنطين كان أول قيصر روماني اعتنق النصرانية، فلقد اعتنقها في ٣١٢م، وأقام الامبراطور مع رجال بلاطه ومجلس دولته وهيئة الحكومة المركزية في العاصمة الجديدة التي حملت اسمه، كما توجه أرباب التراز من جميع أنحاء العالم، تاركين روما وباقي المدن القديمة، عندما علموا بهذه المشاريع الواسعة، مصطحبين معهم ذويهم وبواخر محملة بأمتعتهم المنزلية، وسرعان ما بُني بها أربعمائة قصر

وعدد من الحمامات العامة[1]، بلغت المائة والخمسين، وزاد عدد سكانها زيادة كبيرة حتى فاقت سكان روما نفسها.

وقد شيدت القسطنطينية لتكون مدينة نصرانية الصبغة، بينما ظلت روما حصنًا للديانة القديمة إلى وقت طويل، وبفصل الشخصية الجديدة الوقورة التي خلفتها عليها النصرانية فقد أخذت أطراف الجزء الشرقي من الدولة تتجه إليها وتتجمع حولها، وكذلك اتجهت قلوب النصارى من رعايا الدولة الرومانية نحو العاصمة الجديدة، وتطلعوا إليها كي تنقذهم وتحميهم من حكام روما الوثنيين الذي كانوا يناصبون النصرانية العداء، ويشتتون شمل معتنقيها. وانتهى الأمر بأن نشأ في هذا الجزء الشرقي وعي بشخصية مستقلة، مما حدا بالإمبراطور (تيودوسيوس الكبير) (٣٧٩-٣٥٩م) إلى تقسيم الإمبراطورية بين ولديه قبل وفاته إلى قسمين هما:

- الإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما.
- الإمبراطورية الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية، لكي يتفرغ كل منهما للدفاع عن امبراطوريته، وقد تم ذلك في ٣٩٥ ميلادية.

وقد سقطت روما في أيدي البرابرة، وانتهت الإمبراطورية الرومانية الغربية، أما الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والتي عرفت أيضًا باسم الإمبراطورية البيزنطية فقد ظلت قائمة بعد ذلك التقسيم أكثر من عشرة قرون بفضل مناعة عاصمتها القسطنطينية.

---

(١) د/ محمد عبدالله عنان «القسطنطينية» مقال «مجلة العربي» (العدد٩٧ - ديسمبر ١٩٦٦) الكويت.

ثانيًا ـ القسطنطينية والإسلام

قال رسول الله ﷺ : **«لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم ذلك الجيش»**[١].

يعتبر الرسول ﷺ بحديثه هذا أول قائد رسم بنفسه الخطة التمهيدية لاستيلاء الجيوش العربية على بلاد الشام وضمُّها إلى دولة الإسلام، ذلك أن النبي ﷺ حينما أرسل رسوله إلى صاحب بصرى ليعرض عليه دعوة الإسلام، وكان رسوله هو الحارث بن عمير الأزدي، فعرض له في مؤتة شرحبيل بن عمرو الغسَّاني أمير البلقاء[٢]، فقتله، وفي نفس السنة سنة ٨هـ / ٦٢٩م أرسل النبي ﷺ زيد بن حارثه على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف رجل إلى الجهات الشمالية الغربية من بلاد العرب، وكان الدافع إلى ذلك عدة أمور هي:

- واجب الأخذ بثأر الحارث بن عمير.
- أن يشعر الروم بقوة الإسلام والمسلمين.

ولما التقى المسلمون بالروم في مؤتة، ولم يحرزوا انتصاراً باهرًا، وفهم الروم الأمر فهمًا خاطئًا عندما اعتبروا أن هذه الغارة تعد من غارات البدو الخاصة بالسلب والنهب.

ولكن حملة زيد هذه (غزوة مؤتة) كانت ذات أهمية كبيرة؛ لأنها كانت منظمة واستشهد فيها قادتها الثلاثة زيد وجعفر وابن رواحة[٣].

---

(١) سبق التنويه عليه (ص٦).

(٢) «السيرة» لابن هشام (مؤتة).

(٣) «محمد الفاتح» د/ عبد السلام عبد العزيز فهمي ـ دار العلم دمشق.

والواقع أن القسطنطينية كانت هدفًا دائـمًا للمسلمين منذ أيام معاوية بن أبي سفيان، ويعتبر معاوية أول من نظم اسطولاً في الإسلام، وأول من أرسل حملة عربية إسلامية للغزو في البحر المتوسط، وكـان معاوية قد استأذن الخليفة عثمان ابن عفَّان في الـغزو في البحر فأذن له واشـترط عليه أن لا يجبـر أحدًا من جند المسلمين على ركوب البحر والغزو فـيه . . وهكذا تشجع المسلمون على ركوب البحر والغزو فيه.

ومنذ ذلك اليوم الذي انتـصر فيـه جيش معاوية الـبحري على قبـرص عام ٢٨هـ - ٦٤٨م، والبحرية الإسلامية تؤدي دورًا فـعالاً، وكذلك انتصارهم على البحرية البيـزنطية في معركة ذات الصواري، وكانت ذات الصواري مـوقعة هامة معروفة ظهر بعدها للمسلمين تفـوقهم البحري، وتجرؤا على أعدائهم في البحر، وزال خوفهم من ركوبه؛ فهم قد انتصروا في تلك المعركة على صاحبة أقوى قوة بحرية معاصرة، وكان الأسطول الإسلامي يتكون من مائتي سفينة، وعليه بحارة من المصـريين والسوريين، وتراوحت سـفن الأسطول البيـزنطي بين ٧٠٠ وألف سفينة بين كبيرة وصغيرة، وعن هذه المعركة تحدث المؤرخون[1]، فقالوا:

إن الروم قـد خرجـوا في جمع لم تجـمع الروم مـثله منذ كان الإسـلام، والتقى الأسطولان عند موضع (فيونكس) على الساحل الجنوبي لأسيا الصغرى قرب نـواحي سواحل تونس ويقـود الأسطول البيـزنطي الإمبـراطور (قنسطانز الثاني) (٦٤١-٦٦٨م)، وعلى الأسطول الإسلامي معـاوية بن أبي سفيان يقود أهل الشام، وعبد الله بـن سعد بن أبي السرح والي مصر، وإليـه أمر البحرية الإسلاميـة، وقبل بدء المعركـة بات المسلمون يقرأون القرآن، بينمـا أخذ الروم

(١) الطبري في «تاريخه» أحداث عام ٣١ هجرية.

يضربون النواقيس، وربط المسلمون سفنهم بعضها إلى بعض بسلاسل قوية، وذلك لمهارتهم في الحروب البرية، مما استحال على عدوهم أن يخترق صفوفهم، وانتهت المعركة بتبديد الأسطول البيزنطي، وهرب الإمبراطور (قنسطاتر الثاني) إلى صقلية، حيث عنفه أهلها لخيبته، ومما قالوه: «أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها، لو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم»، ثم أدخلوه الحمام وقتلوه.

وتعتبر معركة (ذات الصواري) البحرية والتي سُمِّيت بهذا الاسم (ذات الصواري) ـ لكثرة عدد السفن التي اشتبكت في القتال ـ حدًا فاصلاً في سياسة الروم إزاء المسلمين، فقد تيقن الأباطرة في القسطنطينية بعدها أن إعداد حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام مجهود فاشل ضائع، وأنه من الأجدى تنظيم الدولة وتخطيط سياستها على أساس الأمر الواقع للاحتفاظ بالبقية الباقية من ممتلكاتها، وتقوية أداتها الحربية لصد هجوم المسلمين الذين أخذوا يتطلعون إلى العاصمة القسطنطينية نفسها، وبذلك كان الأسطول البحري الإسلامي بمثابة ردع للأعداء[١].

والواقع أن القسطنطينية كانت هدفًا دائمًا للمسلمين منذ أيام معاوية بن أبي سفيان كما ذكرنا من قبل، لكن محاولاتهم المتكررة باءت بالفشل بفضل موقع المدينة وقوة الإمبراطورية، وبفعل الخطط الإستراتيجية المنفذة القائمة على أساس غير صحيح[٢].

---

(١) «محمد الفاتح» د/ عبد السلام عبد العزيز فهمي، ط. دار العلم ـ دمشق.
(٢) د/ طقوش «العثمانيون» (ص٨٧).

ولما حاصر بايزيد الأول المدينة عام ١٤٠٢م، كانت الإمبراطورية قد انحسرت في عاصمتها، وسيطر السلطان العثماني على بحر مرمرة، وتحكم في الدردنيل.

ويبدو أن الساعة الأخيرة للمدينة المحاصرة، لم تكن قد حانت بعد، بالرغم من أن السكان آنذاك كادوا يشرفون على الموت جوعًا ويلقون بأنفسهم من على الأسوار ويلجأون إلى العثمانيين للحصول على وجبة طعام[١].

وفجأة ظهرت قلاقل في مشرق الدولة العثمانية، وذلك عندما جاء تيمورلنك ليعطل نمو الدولة العثمانية، فاضطر بايزيد إلى فك الحصار من القسطنطينية ليواجه حشود تيمورلنك في سهول أنقرة.

واستعادت بيزنطية بفضل حكم مانويل الثاني معظم بلاد اليونان وأجزاء من تراقيا، لكن محمد الأول أعاد تنظيم الجيش العثماني وتحول به مراد الثاني من الهزيمة المنكرة إلى انتصارات باهرة[٢].

ويذكر المؤرخون أنه في عام ١٤٢٢م أعاد السلطان مراد الثاني الهجوم على القسطنطينية، لكن ثورة حدثت في الولايات البلقانية أرغمته على رفع الحصار، وسمح للإمبراطور يوحنا الثامن أن يحكم بسلام نسبي شرط أن يدفع جزية باهظة للعثمانيين[٣].

وفي عام ١٤٤٩م اعتلى العرش، عرش بيزنطة الإمبراطور قسطنطين، وكان آخر من جلس على عرش بيزنطة، وكانت علاقاته مع العثمانيين طيبة في عهد

---

(١) «قصة الحضارة» ول ديورانت (مجلد٦ - ص٢، ص٣٤).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المصدر السابق (ص٣٥).

مراد الثاني، فقد عاهد مراد الثاني على الولاء، ثم حدث أن توفي مراد الثاني في عام ١٤٥١م وخلفه ابنه محمد الثاني، فاكفهر جو العلاقات العثمانية البيزنطية بفعل تبدل الظروف السياسية.

ثالثًا - استعدادات محمد الفاتح

كان السلطان محمد الفاتح يعلم أن ما هو مقدم عليه عمل خطير؛ لذلك بدأ في التخطيط والتجهيز لفتح القسطنطينية من خلال الخطوات الآتية:

١ - بذل جهودًا كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية، حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد(١)، وهو عدد كبير.

٢ - اعتنى محمد الفاتح عناية كبيرة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة، وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة.

٣ - حرص الفاتح على إعداد جيشه إعدادًا معنويًا قويًا، وغرس فيهم روح الجهاد، كما حرص على تذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية، وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم دفعة معنوية هائلة.

٤ - أرسل العلماء لحث الجنود على الجهاد، فانتشروا بينهم، وكان لذلك أثر عظيم في تقوية عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقي وفق أوامر الله - عزَّ وجلَّ -.

وفي هذه الأثناء بدأت في الإمبراطورية البيزنطية مظاهر ضعف تبدو على السطح، إذ أنها لم ترسل فرقًا عسكرية إلى الجيوش الصليبية في ماريتزا

---

(١) «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، محمد فريد بك (ص١٦١).

وكوسوفو ونيقوبوليس؛ لأنها فقدت الرغبة في الدفاع عن نفسها، وعجزت عن إقناع مواطنيها الأرثوذكس المنغمسين في السفسطة بأن الاستشهاد في سبيل الوطن عمل مجيد، وكثرت وتشعبت المشاكل الداخلية بفعل التعصبات المذهبية والقلاقل الدينية[١].

رأى السلطان محمد الثاني، أن هذا الوقت مناسبٌ للعبور إلى أسيا الصغرى، لإخماد بعض الثورات التي اندلعت فيها ضد حكمه بتحريض من الإمبراطور البيزنطي، خاصة ثورة القرمانيين بقيادة إبراهيم بك، فنزل ممتلكاته الأوربية تحت أمرة الوزير خليل باشا المعروف بصداقته للبيزنطيين[٢].

استغل قسطنطين إمبراطور بيزنطة زحف محمد الفاتح إلى أسيا الصغرى، وأبلغ الوزير خليل باشا أنه إذا لم يدفع من فوره مصاريف الأمير (اورخان) أمير القسطنطينية، وأن تكون مضاعفة، والإ فإنه سيطلق سراح هذا الأمير ويثيره عليه، ويمده بجيش من عنده، ويجلسه على عرش السلطنة مستغلاً بذلك الأحداث التي قام بها أمير القرمان ضد السلطان العثماني الجديد[٣].

ومن هذه اللحظة التي أنذر فيها الإمبراطور قسطنطين السلطان محمد الثاني، عزم محمد الفاتح على فتح القسطنطينية لتأمين دولته، وابتدأ باستعدادات ضخمة. ولاحظ محمد الثاني إهمالاً من عدوه قسطنطين في علاقاته وتحالفاته مع الغرب، ومواصلاته في الجنوب، فاستغل السلطان العثماني هذه الثغرة لعزل قسطنطين فوقع معاهدة مع البندقية في العاشر من شهر أيلول عام ١٤٥١م،

---

(١) «قصة الحضارة» ول ديورانت.
(٢) المصدر السابق (مجلد٦ ـ ص٢، ص٣٦).
(٣) «السلطان محمد الفاتح» د/ عبد السلام عبد العزيز فهمي.

وتفاهم مع يوحنا هونيادي في العشرين من تشرين الثاني، إذ تعهد السلطان بأن يمتنع عن مساعدة حاكم الأفلاق ضد المجر، وعن إنشاء الحصون عند نهر الدانوب مقابل سلم وآمان بين الطرفين.

وصادق في الوقت نفسه جنوة وراجون وفرسان القديس يوحنا في رودس، كما أرسل قوة عسكرية إلى المورة ليفتحها، ويمنع أميرها توماس وديمتريوس البيزنطيين من مساعدة قسطنطين، وبهذه التحالفات يكون قد عزل الإمبراطور البيزنطي سياسيًا عن العالم الغربي[١].

أما في أسيا الصغرى فقد أخضع القرمانيين[٢]، مما قضى على كل أمل في تحالف بيزنطي - قرماني. وبذلك كله مهد محمد الفاتح الجو السياسي للمعركة وخاض معركة سياسية رائعة ضد قسطنطين ملك بيزنطة.

وبالمقابل فقد كانت تحركات محمد الفاتح ضد قسطنطين إمبراطور بيزنطة بمثابة استفزاز له، فتعكر صفو العلاقات بين الجانبين، وخطا محمد الثاني خطوة مستفزة أخرى وهي إلغاء راتب (أورخان) الأمير لديهم وبدأ يعد العدة لحصار القسطنطينية بالرغم من تحذير الصدر الأعظم خليل الجندرلي، إلا أنه بدأ بخطوات عسكرية مهمة مثل بناء قلعة روملي حصار على الشاطئ الأوربي إلى جدار القسطنطينية، وشعر قسطنطين بالهلع والخوف مما يعده السلطان محمد الفاتح، وبدأ يستعد للمواجهة.

---

(١) «التحفة الحليمية - تاريخ الدولة العلية العثمانية» لإبراهيم بك حليم (ص٦٤).
(٢) «محمد الفاتح» سالم الهيثمي (ص٨٠).

رابعًا - بناء قلعة روملي حصار

أقدم السلطان علـى خطوة تمهيدية للحـرب ولفتح القسطنطـينية، وهي بناء قلعة روملي حصار، على الشاطئ الأوربي إلى جـوار القسطنطينية، وهي تبعد نحو ستة أميال إلى الشمال منها[١].

وبذلك يكون السلطان محمد الفـاتح قد كسب موقعًا استراتيجـيًا واقتصاديًا يحـول دون وصـول الإمدادات القـادمـة من مملكة طرابزون عن طريق الـبحـر الأسود، وبالتالي عـزل القسطنطينية اقتصاديًا كـما أراد السلطان أن تكون القلعة قاعدة لأعماله الحربية في أوربا ومستودعًا للزاد والعتاد[٢].

تم بناء هذه القلعة في زمن قـياسي، خاصة إذا علمنا أن إرتفـاع القلعة عن سطح البـحـر يبلغ ٨٢ مـترًا، وأنـها تشـتـمل على ٣ أبراج إرتفـاع كل منهـا ٢٦/٧٠م، وأن مسـاحة الأرض التي تشـغلها ٣٠٢٥٠م٢، تربض أمام الضـفة المقابلة أناضولي حصاري الذي شيَّدها جده بايزيد الأول[٣].

لم يكن ممكنًا لأية سفـينة أن تمر من البحر الأسود إلى البـحر الأبيض، أو بالعكس تحت النيـران المتقـاطعة للمـدافع المثبـتة على الطرفين (قلعـة روملي حصار) الجديدة، وقلعة أناضولي حصار القديمة التي بناها جده بايزيد دون إذن من الأتراك، ولم يحدث ذلك حتى يومنا هذا، لذلك فإن مؤسس نظام المضايق هو السلطان محمـد الفاتح. ومن المعلوم أن الموقع الذي شيد فـيه القلعتين هو

---

(١) «أوزتونا» (جـ١ - ص١٣١).
(٢) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٨٢).
(٣) «أوزتونا» (جـ١ - ص١٣١).

أضيق نقطة في مضيق استانبول؛ حيث ينخفض العرض في هذه النقطة إلى ٦٦٠م فقط[١].

بهذا يعتبر السلطان محمد هو مؤسس نظام المضايق، وبعد أن أنهى إنشاء القلعة والتحكيمات اللازمة عاد إلى أدرنة في أول أيلول ١٤٥٢م.

وبينما إنشغل الإمبراطور قسطنطين الذي أدرك نية السلطان محمد الفاتح بدعوة أوربا إلى المساعدة، قضى السلطان[٢] محمد الفاتح شتاء عام (٥٢-١٤٥٣م) في أدرنة في استعدادات مدهشة، وأمر بسبك المدافع بأقطار لم يسبق أن شوهدت من قبل، ومدافع (الهاون) التي استعملت لأول مرة في التاريخ، وقد خطط لهذه المدافع بنفسه، كما اختبرها بنفسه، كانت نتيجة تجربة المدفع الكبير حسنة، فقد سمع انفجار البارود عند إشعاله بالنار من مسافة ١٠٠ ستار (٢/٥ ميل)، وسقطت القذيفة على مسافة ميل واحد، وحفرت عند سقوطها حفرة بعمق ١ قولاج (مسافة ما بين اليدين إذا فتحتا بشكل مستو)، وارتكزت في التراب اللين وبقيت فيه[٣].

وكان بناء السلطان محمد الفاتح لقلعة روملي حصار بمثابة النقطة الحرجة التي وصلت إليها العلاقات السلمية بين الطرفين؛ إذ رأى السلطان في هذه القلعة مقدمة لإسقاط المدينة، وقد أدرك الإمبراطور ذلك، فأرسل سفيرين إلى السلطان في أدرنة للإحتجاج على هذا المشروع؛ لأن بناء القلعة بنظره يعني خرق السلطان للمعاهدة التي سبق وعقدها والده مع الإمبراطور البيزنطي،

---

(١) «أوزتونا» (جـ١ ـ ص١٣١).
(٢) المصدر السابق (ص١٣٢).
(٣) «تاريخ الدولة العثمانية» بيلماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٣٢).

ونصت علي عدم قيام العثمانيين ببناء تحصينات على الساحل الأوربي للبوسفور[١]، إلا أنه لم يكن يأمل في تلقي جواب مطمئن، وعندما عاد سفيراه بعد أسبوع تحققت ظنونه ومخاوفه، ذلك أن السلطان محمد الفاتح أبدى عدم اهتمام، ولم يكترث بما جاء به السفيران، وبين بصورة قاطعة أنه لم يخرق أية معاهدة، وأنه رجل سلام، وبالتالي فإن ما قام به تطلبته سلامة دولته وجيشة وأنه لم يستهدف الحرب[٢].

خامسًا - إعلان الحرب

كانت النتيجة المؤكدة والحتمية لبناء قلعة روماللي حصار ومحاولات الرومانيين هدمها والاعتداء على عمالها، أن أعلن السلطان محمد الفاتح الحرب رسميًا على الدولة البيزنطية، وعيَّن فيروز أغا قائدًا للقلعة الجديدة، ومعه أربعمائة من خيرة جنود الإنكشارية، وأمره ألا يسمح لأي سفينة أجنبية بالمرور إلا بعد تفتيش دقيق ودفع الضريبة، وإن رفضت أطلق عليها القذائف.

أخذت حامية الحصن تنفذ خطتها بانتظام، وفرضت سيطرتها التامة على المنطقة المحيطة بها، وأدرك الإمبراطور قسطنطين أن محاولاته للحفاظ على السلام بأي ثمن لن تفيده شيئًا. فلا شيء يرضي العثمانيين غير القضاء على ملكه، وغير الاستيلاء على مدينته، فأغلق أبواب القسطنطينية وبعث إلى السلطان محمد الثاني بما عزم عليه في رسالة خطية جاء فيها:

«لما كان من الجلي أنك تريد الحرب أكثر من السلام؛ ولما كنت غير مستطيع أن أقنعك بإخلاصي واستعدادي لأن أكون لك تابعًا، لذا فالأمر لله وسأوجه

---

(١) «محمد الفاتح» سالم الرشيدي (ص٢٢).
(٢) د. قطوش «العثمانيون» (ص٩٠).

وجهي إلى الله، فإذا كانت إرادته تقضي بأن تصبح هذه المدينة مدينتك، فلا رادَّ لقضاء الله وقدره، وأما إذا ألهمك الرغبة في السلام فسأكون سعيدًا ما بقيت، ومع ذلك فإني أعفيك من كل تعهداتك واتفاقاتك معي، وسأغلق أبواب هذه المدينة وأدافع عن شعبي إلى آخر قطرة من دمي . . . .»[١].

أنجز السلطان محمد الفاتح بناء القلعة في ثلاثة أشهر، ثم أخذ بجمع المواد ويجهز الرجال، فأعدَّ جيشًا جرارًا يقدَّر بمائتين وخمسين ألف جندي، واستخدم كل جديد في فنون الحرب، خاصة المدفعية، وآلات الحصار الضخمة، واستأجر الصناع المسيحيين ليصنعوا له أكبر مدفع عرف حتى ذلك الوقت[٢].

اقتسم البيزنطيين هذه الأثناء إلى قسمين، كانت أوربا تطلب من البيزنطيين لكي تساعدهم على ترك مذهبهم الأرثوذكسي، واعتناق المذهب الكاثوليكي، أما الإمبراطور البيزنطي، فقد كان حاميًا للمذهب الأرثوذكسي، وحاميًا للبطريك العالمي الأرثوذكسي، ومن ثم فإنه من غير الممكن أن يتبع البابا من الناحية الدينية، وعلى الرغم من عمق الجذور ـ جذور العداوة التاريخية بين الكاثوليك والأرثوذكس ـ فقد جرت مراسم دينية على الأصول الكاثوليكية في أيا صوفيا أكبر كنيسة في العالم في ١٤٥٢م وتولى إدارة المراسم الكاردينال (لسيدور) الذي أرسله البابا، واشمئز الشعب البيزنطي معبرًا عن شعور البيزنطيين: أنني أُفضل أن أشاهد في ديار البيزنطيين عمامة الأتراك، على أن أشاهد القبعة اللاتينية.

قضى البيزنط شتاءً مريرًا تحت ظل أسوار قلعة حصار بوغاز كسن التي تمتد على طول ٢٠٠٠م. لكنه كان يعتمد على أسواره ـ التي لم يتمكن من فتحها

---

(١) «محمد الفاتح» د/ عبد السلام عبد العزيز فهمي ـ دار العلم دمشق.
(٢) «محمد الفاتح» سالم الرشيدي.

أشد الغزاة قساوة ـ وعلى تركيب نارهم، التي لا يعلم سرها سوى البيزنط والتي تزداد لهيبًا كلما صبَّ عليها الماء وعلى السيدة مريم.

كانت مناعة أسوار القسطنطينية تأتي في المرتبة الأولى في العالم؛ فقد كان ارتفاع الشرفات ١٧ متر، وما بين الشرفات ١٥ متر، ويبلغ السمك في الذروة ٤ متر، وفي القاعدة أكثر بكثير، وكان عرض الخندق الموجود أمام الأسوار ١٨ ١/٢ متر، وعمقه ٩ أمتار، وكان مليئًا بالماء، وكان للأسوار المكونة من طوابق عديدة ٣٠ برجًا مكسيًا بالرصاص. وكان المعروف أن القوات العثمانية ستتخطى كل هذا، وهو أمر مستحيل.

سادسًا ـ محاولات مواجهة محمد الفاتح

ولما بدأ السلطان محمد الفاتح استعداداته الحربية، وأوشك أن يطوق القسطنطينية بجيشة القوي ومدافعه الضخمة.

عندئذ صرخ قسطنطين صرخه استغاثة، وكانت استغاثة عبارة عن رسائل إلى الغرب، فاستنصر بالبندقية وجنوا فبذلت جهودًا في طرح هذا الأمر على ملوك الغرب واستنفارهم لنصرة القضية القسطنطينية، ولكن أوربا آنذاك كانت منهمكة في منازعاتها وحروبها الخاصة، فلم يسمع لقسطنطين صوتٌ في الغرب، فقد كانت البندقية مشغولة في حرب دوق ميلان، ولكنها رغم ذلك قامت بما يلي:

ـ أعدت عشر سفن بقيادة جاكوبو لوريدانو، وانتظرت حتى تأتيها السفن التي وعد بها البابا دالفونس ملك نابولي لكي يتكون من ذلك أسطول قوي يستطيع تقديم معونة ناجحة إلى القسطنطينية.

ومضى وقت ثم طويل، إلا أن البابا تحرك بعد ذلك وبعث بثلاثين سفينة ولكنها جميعًا لم تحقق الهدف المنشود.

وحاولوا توحيد الكنيستين لتوحيد مواجهة محمد الفاتح إلا أن هذا الأمر واجه صعوبات حتى إن أحد الرهبان المشهورين قلل من شأن هذا الاتحاد الذي بدأ على يد الكاردينال أيسبدور في كنيسة أياصوفيا، وقال: لا حاجة بنا إلى اللاتين، فكما أنقذنا الله والعذراء من الفرس والعرب من قبل سينقذنا هذه المرة من محمد الفاتح.

وأنذر هذا الراهب الروم بأنهم إذا تركوا عقيدتهم فإن الله سينزل بهم أشد العقاب ويفقدون مدينتهم، وهاج الرهبان وماجوا وقاموا بمظاهرة طافوا فيها المدينة، وخرجت إحدى الراهبات إلى الملأ في ملابس المسلمين وأعلنت أنها اعتنقت الإسلام وأخذ تأكل اللحم والناس في صومهم الكبير[١].

سابعًا - الاستعداد والتأهب للحصار

أما السلطان محمد الفاتح فقد انهمك كلية في الاستعداد والتأهب لحصار القسطنطينية المقبل، وقد أدرك أنه سيكون حصارًا طويلاً وشاقاً، وفيما كان يجد في استعداداته دخل عليه رجل مجري يُدعى (أوربان)، وهو صانع المدافع، بل يعد أمهر صانع للمدافع في زمانه، وكان أوربان هذا قد طاف ببعض بلدان أوربا وعرض صناعته على بعض ملوكها فلم يصغ إليه أحد، فذهب إلى القسطنطينية ولبث هناك زمنًا يقدم خدماته للإمبراطور ويعينه على إتخاذ أسباب الدفاع عن هذه المدينة، غير أن الإمبراطور ضنَّ عليه بالمال، وقد كان أوربان هذا رجلاً

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٧٨) - طبعة دار البشير - طنطا - مصر.

جشعًا يحب المال حبًا جمًا، فبرم بهذه الحال كما برم بالمناقشات والمنازعات الدينية التي كانت تسود القسطنطينية؛ ففرَّ إلى السلطان محمد الفاتح الذي بالغ في الحفاوة به قائلاً: «هل يمكنك أن تصنع مدافع أكبر من التي صنعتها حتى الآن». فأجاب أوربان على الفور: «في استطاعتي أن أصنع لك مدفعًا يدك أسوار القسطنطينية، ولو كانت في مناعة أسوار بابل، غير أني مهندس ولست جنديًا، فلا أعرف أين توضع المدافع؟!!».

فقال السلطان محمد الفاتح ضاحكًا: «أنا الجندي، ما عليك إلا أن تصنع المدافع التي أريدها، أما أين توضع وكيف تصوَّب فدع ذلك لي»[1].

وكان المدفع اختراعًا حديثًا في هذا الوقت، استطاع أن يغير مجرى التاريخ، وكان مدفع الهاون هذا اختراعًا عثمانيًا عرفه العالم لأول مرة أثناء حصار القسطنطينية، كما كان المدفع الضخم أكبر عامل في فتح مدينة القسطنطينية.

ويذكر المؤرخون[2]، أن هذا المدفع الضخم لم يكن من اختراع أوربان وحده، بل هو من اختراع اثنين هما: مصلح الدين وأوربان، وأوربان هذا مختلف في أصله هل هو مجري أو روماني، كان المدفع ضخمًا جدًا، طلقاته من مسافة (٢٥ميلاً) وقذيفته من الحجر والبارود تبلغ زنة القذيفة الواحدة (١٥٠٠كجم)، تصل مداها إلى مسافة ميل، وقد بلغ عدد المدافع التي صنعها كل من مصلح الدين وأوربان ٢٠٠ مدفع.

وعندما كان المدفع ينقل من أدرنة العاصمة إلى القسطنطينية ليستقر أمام أسوارها كان لزامًا على العثمانيين توسعه طريق أدرنة - القسطنطينية، وقام بهذه

---

(١) المصدر السابق.

(٢) د/ محمد حرب - «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٧٨).

العملية (٥٠) مهندسًا ومائتا عامل، وكان يجر المدفع ٦٠ جاموسة ويسند المدفع من جانبين ٤٠٠ رجل قوي: (٢٠٠) على كل جانب، وذلك حتى لا ينزلق المدفع يمنة أو يسرة أثناء المرور، ولقد لعبت هذه المدافع دورًا ملحوظًا في الحصار سواء في الضرب أو في عمليات التمويه، وإن لم تكن كافية للتحكم تمامًا في الخليج كله[1].

وقد قطع هذا المدفع الضخم الطريق من أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية في شهرين وهو طريق يقطع عادة في يومين، وكان لإنطلاق القذيفة من هذا المدفع دوي هائل مرعب يصم الآذان، ويسمع على بعد ثلاث عشر ميلاً، وعندما أريد تجربته أول مرة في أدرنة أنذر سكان المدينة لئلا يفجأهم هذا الدوي المرعب، فتضع الحبالى من النساء، ويصعق الناس، وإنطلقت القذيفة الضخمة إلى مسافة ميل وغاصت في الأرض ستة أقدام.

وقد أعجب الناس بهذا المدفع إعجابًا شديدًا، ومن شدة إعجابهم نسبوه في تسميته إلى السلطان ودعوه بـ (المدفع السلطاني)، وقد كان بحق سلطان المدافع في عصره، وصنع أوربان إلى جانب هذا المدفع مدافع أُخرى، وسُرَّ السلطان الفاتح بنجاح التجربة وأجزل العطاء والمكافأة للعمال وبخاصة الذين صنعوا هذا المدفع، وازداد الأتراك حماسًا لفتح القسطنطينية.

---

(١) «العثمانيون والحضارة» د/ محمد حرب.

ثامنًا - مشاورات حول فتح القسطنطينية

لهذا كله سيطرت فكرة فتح القسطنطينية على ذهن السلطان محمد الفاتح واستحوذت على جميع جوانب نفسه فأصبح لا يتحدث إلا في هذا الأمر ولا يأذن لأحد ممن يجالسه بالحديث في غيره.

وذُكِرَ أنَّه كان يخرج مع بعض خاصته في بعض الليالي يعس ويجول طرقات المدينة يتسمع إلى أخبار الجنود وأحاديث الناس، وأصبح أمر القسطنطينية همًا للسلطان يشغله ليله كما كان يشغله نهاره، لذلك فقد بدأ يخطط لنجاح هذا الفتح، واستهلَّ ذلك بالمشاورات مع وزرائه والمقربين حوله.

وفي ليلة من الليالي دعا وزيره (خليل باشا)، وأُوجس الوزير خيفة، وظنَّ أنَّ شرًا قد أُريد به، فقد كان ممَّن عَمل على عزل السلطان الفاتح عن العرش في المرتين السابقتين، فحمل معه صُرَّةً مملوءة ذهبًا ووضعها بين قدمي السلطان الفاتح الذي كان جالسًا على سريره وعلى وجهه أثار الإعياء والتعب، فلما رآهُ السلطان بادره بقوله: ما هذا؟

فأجاب خليل باشا: «لا ينبغي لوزير أن يُدعى في مثل هذه الساعة ويده خالية، إن ما أقدمه إليك ليس ملكي، بل هو من فضلك».

فقال الفاتح: «لست في حاجة إلى هذا، وإنما الذي أُريده منك هو أن تعينني بكل قوتك على امتلاك القسطنطينية».

وارتعد خليل باشا من هذا القول، فقد كان يمالئ الروم خفية واستمالوه إليهم بالذهب والهدايا، واشتهر أمر ذلك بين الناس، فلما ذهب عنه الخوف، قال للفاتح: «إن الله الذي منحك جزءًا كبيرًا من الإمبراطورية الرومية سيمنحك ما تبقَّى منها، ويفتح لك أبواب عاصمتها؛ وأن جميع رعيتك سيتسابقون في التضحية بأموالهم وأنفسهم في هذا السبيل».

فقـال له الفاتح: «أرأيت هذا الفـراش؟ لقد تقلبت عليـه طوال الليل، ولم يطمـئن بي مضـجع ولا أتاني النوم، ولكن حذار أن تـفسدك أمـوال الروم، إنَّ القتال سيبدأ عن قريب وإننا بعون الله سنستولي منهم على هذه المدينة»[1].

وما إن خـرج خليل باشـا من قصـر السلطان الفاتح الذي أصـبح مـركزًا للقيـادة والتخطيط للمـعركة، مـا إن خرج نهض السلطان مـحمـد الفاتح عن فراشـه وأخذ يرسم مدينـة القسطنطينية، وأسـوارها وأين توضع المدافع وآلات الحصـار وأين يكون الهجـوم، ثم أخذ يتـحرى المعلومـات الدقيقـة عن المدينة واستحكامـاتها ومواردها، ولا تمر عليـه صغيرة ولا كبـيرة دون أن يتفحـصها ويدقق فيها ويُعِدُّ لها عُدَّتها.

من هذه الروايات ومن سياقها نتبين أن مـحمد الفاتح اهتمَّ بالتخطيط الدقيق والإعداد المسبق لعمليته التاريخـية الكبرى، ولذلك استطاع أن يكون رؤية صادقة للموقف المطروح أمامه، مما يسمونه الآن في قاموس السياسة (تقدير موقف).

لقـد رأى السلطان محـمد الفـاتح أن الطريق إلى القسطنطينـية من ناحـية الدردنيل مازال مفتوحًا تدخل منهـا السفن وتخرج في حريَّةٍ تامةٍ، وبذلك قدر الموقف واتخذ القرارات المناسبة في مواجـهة ذلك؛ فأمر بالإسراع في بناء سفن جديدة وإصـلاح القديمة ووضعهـا في بحر مرمـرة لمنع أي سفينة نصـرانية من تموين القسطنطينية، وهذا جزء من الحصـار، وبلغ عدد هذه السفن التركية على اختلاف أنـواعها وأحجـامها مئـة سفينة عل تقدير المؤرخ الرومي (فـرانتزلس) وهناك تقـديرات أخرى تتـراوح بين ٣٥٠، ٣٠٠، ٢٥٠ سفـينـة، على أنه لم يكن من هذه السفن غير اثنتي عشرة فقط كـانت مسلَّحة تسليحًا تامًا، وخشي

---

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٨١) ـ ط. مصر.

الروم أن تدخل هذه السفن إلى ميناء القرن الذهبي فسدوا مدخله في ١٢ إبريل ١٤٢٣م بسلسلة ضخمة، واحتمت السُّفن النصرانية وراءها، وعهد بحراسة الميناء إلى الجنويين.

تاسعًا ـ الزحف وبدء الحصار

وفي أواخر شهر مارس، كان السلطان محمد الفاتح قد أتم استعداداته ثم زحف بجيشه إلى القسطنطينية، وما إن وصل إلى مشارف المدينة حتى خطبهم خطبة بليغة، حثهم فيها على الجهاد، وقرأ عليهم الآيات القرآنية وحديث رسول الله ﷺ : **«لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»**.

وبين لهم أنه فخر كبير وإعزاز للإسلام أن تفتح القسطنطينية، وكان في طليعة هذا الجيش الشيوخ والعلماء والدراوشه يتقدمهم الشيخ آق شمس الدين، وفي ربيع الأول ٨٥٧هـ/ ٥ إبريل ١٤٥٣م وصل الجيش الإسلامي أمام أسوار القسطنطينية، بجموعه الهادرة وتكبيراته المدوية، وشرع السلطان الفاتح في التأهب لحصار القسطنطينية.

وفي اليوم التالي الجمعة ٢٧ ربيع الأول ٨٥٧هـ، ٦ إبريل ١٤٥٣م، بدأ الحصار، ولكن أي مدينة وأي تحصينات شرع محمد الفاتح في حصارها. إن وصف موقع هذه المدينة لحظة حصارها يبين مدى المسئولية التي تحملها القائد البطل محمد الفاتح عندما شرع في حصارها وفتحها.

---

(١) سبق التنويه إليه (ص٦).

عاشرًا - القسطنطينية عند بدء حصارها

وقد حرصنا على الحديث عن وصف القسطنطينية لحظة حصارها، فهي عاصمة الإمبراطور الرومانية الشرقية العتيقة، وهي مدينة مثلثة الشكل، جانب منها يقع على بحر مرمرة وجانب على ميناء القرن الذهبي، ويمتد على طول كل منهما سورٌ واحدٌ، أمَّا الجانب الثالث الذي يقع في الجهة الغربية ويصل القسطنطينية بأوربا، فكان هناك خطان من السور طولهما أربعة أميال يمتدان من شاطئ بحر مرمرة إلى شاطئ القرن الذهبي، ويبلغ ارتفاع السور الداخلي منهما نحو أربعين قدمًا، وقد دُعِّمَ بأبراج طولها ستون قدمًا، وتبلغ المسافة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدمًا، ويبلغ ارتفاع السور الخارجي نحو خمس وعشرين قدمًا، وقد حُصِّنَ أيضًا بأبراج شبيهة بأبراج السور الأول، وإن كانت أصغر حجمًا قليلاً، وهذا السور الخارجي وحده كان من القوة والمناعة بحيث يكفي لحماية أي مدينة من مدن العصور الوسطى، وبين هذين السورين فضاء يبلغ متوسط عرضه نحو ستين أو خمسين قدمًا، ويقع أمام السور الخارجي سور ثالث ليس بذي خطر، سهل اقتحامه، يصح أن تسميه متراسًا، وبين هذا السور والمتراس يوجد فضاء آخر، ثم نجد أمام هذا المتراس خندقًا واسعًا يبلغ عرضه نحو ستين قدمًا، ويعتبر هذا الخندق خط الدفاع الأول عن القسطنطينية[1].

وللسور الخارجي لهذه المدينة أبواب كثيرة، أهمها:

١ - باب أدرنة.

٢ - باب المدفع، ويُسمى بالتركية (طوب قبو) وكان القدماء يسمونه باب القديس رومانُسْ.

٣ - الباب العسكري الثالث.

---

(١) المصدر السابق.

ألا يحق لنا أن نوجه تحية عبر هذا التاريخ العظيم لمحمد الفاتح ورجاله الأشداء الذين سنراهم ونتخيلهم ونحن نقرأ كيفية فتح القسطنطينية والذين اختارهم جهدًا وأشقاهم تعبًا ومشقة . . تحية للرجل والرجال قبل أن نقرأ هذا الفتح العظيم.

أقام محمد الفاتح جنوده تجاه السور وجعلهم ثلاثة أقسام:

١ ـ القسم الأول ـ الميمنة: ويتألف من جنود الأناضول بقيادة إسحق باشا ومحمود بك، ويواجه جزءًا من السور يمتد من أقصاه الجنوبي عند بحر مرمرة إلى طوب المدفع كما ذكرنا في أبواب القسطنطينية.

٢ ـ القسم الثاني ـ الميسرة: ويتألف من جنود أوربا والمتطوعين وغير النظاميين بقيادة (قره جه باشا) ويواجه جزءًا من السور يمتد من أقصاه الشمالي عند ميناء القران الذهبي إلى باب أدرنة.

٣ ـ القسم الثالث ـ القلب: ويتألف من الإنكشارية والجنود المختارة بقيادة السلطان الفاتح نفسه ويواجه من السور الجزء الأوسط الذي يمتد من باب المدفع (طوب قبو) إلى أدرنة، و هذا الجزء من السور يعرف أيضًا باسم (ميزوتشيون) كما يعتبر أضعف جزء فيه؛ إذ يقع في وادي نهر ليكوس، وأمام محمد الفاتح هذا القلب مركز قيادته للإشراف علي حركات الجند وسير الحصار والقتال، وأقام عند كل باب مراقبًا خاصًا، وقدم جميع المراقبين بسالة عظيمة في أداء عملهم وأبلوا أحسن البلاء، وفي مقدمتهم شاعر أحمد باشا، وحيدر باشا، وسعدي باشا، وهرشك باشا، وقد استشهدوا جميعًا ودفنوا عند الأبواب التي كانوا يراقبونها، وعسكر زغنوس باشا أحد قواد الفاتح مع فرقة من الجند في المرتفعات المشرفة على غلطة لمراقبة الجنويين بها، ومنعهم من إمداد القسطنطينية

ومراقبة الشاطئ الشمالي من القرن الذهبي، وأمره الفاتح أن يقيم جسرًا عند نهاية الميناء؛ لتسهيل الإتصال ونقل الجنود من إحدى الضفتين إلى الأخرى، وليتمكن من الإشتراك في الهجوم على المدينة من ناحية البرِّ عند الحاجة.

ونصب السلطان محمد الفاتح أمام السور البري المدافع والمجانيق وأحكم وضعها وتنسيقها، وكانت هناك أربع عشرة بطارية في كل واحد منها أربعة مدافع نصب الكبيرة الضخمة منها أمام باب (المدفع).

وانتشرت السفن العثمانية في بحر مرمرة لمنع ما قد يأتي من سفن العدو من الغرب لإنجاد القسطنطينية ومراقبة السور الواقع على بحر مرمرة.

أما قسطنطين ملك الروم، فقد خشي أن تقتحم هذه السفن ميناء القرن الذهبي وتحاصر المدينة من هذه الناحية، فقد كان السور القائم هناك أضعف الأسوار كلها، ومن هذا الجانب دخل الصليبيون القسطنطينية ١٢٠٤م، فشدد الحراسة على هذا الميناء، وأمر السلطان الفاتح قائد السفن العثمانية (بالطة أوغلو) بتطهير بحر مرمرة والاستيلاء على جزر الأمراء، وهي جزر تقع في وسط بحر مرمرة، وكانت منفى الأمراء الروم وأباطرتهم، وقد استولى عليها بالطة أوغلو وانتشل المعتقلين والمسجونين من السجون ورد إليهم حريتهم وأطلق سراحهم، ثم وضع في هذه الجزر حاميات عثمانية.

أما الإمبراطور قسطنطين، فقد أعدَّ كل ما استطاع إعداده من جند وعتاد لمقاومة هذا الحصار، ووزع جنوده على أسوار القسطنطينية واتخذ هو مكانه تجاه قلب الجيش العثماني ما بين باب أدرنه وطوب قبو، ومعه القائد الجنوي جستنيان الذي عهد إليه قسطنطين بالقيادة العامة في الدفاع.

الحادي عشر - تقدير أعداد الجيوش المتحاربة

اختلف المؤرخون في تقدير عدد الجيش العثماني، أما المؤرخون البيزنطيون[١]. القدامى، فقد بالغوا في تقديره، ويرفعونه إلى ثلاثة مئة ألف وأربع مئة ألف مقاتل.

والواضح أن هؤلاء المؤرخين يرمون إلى تكثير الجيش العثماني عددًا لكي يقللون من شأن الهزيمة التي نزلت بالروم وتهوين شأن النصر الذي أحرزه العثمانيون.

ويقدر بعض المؤرخين الغربيين الجيش العثماني بمئة وخمسين ألفًا أو مئة وستين ألفًا[٢]، وإلى هذا التقدير المعتدل ذهب بعض المؤرخين الأتراك.

أما المدافعون عن القسطنطينية فقد قُدروا بثمانية آلاف مقاتل نصفهم من الروم والنصف الآخر من اللاتين . . إلا أن هذا الرقم قصد به أيضًا التقليل من شأن الفتح العظيم، فساق العدد القريب إلى الواقع بعض المؤرخين، فقالوا: إن عدد المدافعين لا يقل عن ستين ألفًا[٣]، وقيل أنهم بلغوا أربعين ألفًا وإلى جانبهم يقف ذلك السور العملاق الضخم.

---

(١) ومنهم - فرانتزلس ودوكاس وخالكونديل.

(٢) «فتح جليل قسطنطينية» أحمد مختار باشا.

(٣) ضياء شاكر - «فتح استانبول».

الثاني عشر - بدء الهجوم

بدأت مدافع العثمانيين تدك بقذائفها الهائلة سور القسطنطينية الضخم، وظلت على ذلك ليلاً ونهاراً لا تكاد تنقطع إلى آخر أيام الحصار، وكان لاصطدام القذيفة بالسور دوي هائل يملأ القلوب - قلوب أهل القسطنطينية - رعبًا وهلعًا، وبخاصة في ساعات الليل الهادئ والسكون المظلم، ويملأ الفضاء بسحب الدخان والتراب. ووجم الناس في القسطنطينية وانتابهم نوع من الذهول، وما ظنوا قط أن للمدافع كل هذا الأثر، وأخذ القسس يجوبون الشوارع يخطبون الناس بأن لا يقطعوا الأمل.

- وقد استبسل الفريقان المهاجمون والمدافعون في القتال والنزاع، واصطرعوا صراع الحياة والموت.

* أما المدافعون، وعلى رأسهم جستنيان والإمبراطور، فقد كانوا لا يكاد يتلف جانب من السور حتى يسرعوا إلى إصلاحه وترميمه، بينما المحاصرون لا ينقطعون عن رمي قذائفهم على السور ويندفعون بين حين وحين لاقتحامه، وقد أبدى جنود الإنكشارية بوجه خاص بسالة نادرة وشجاعة فائقة لا يبالون بالموت والخطر، وقد أشاد ببطولتهم المؤرخ الإيطالي باربارد والذي شاهد أعمالهم بنفسه، فقد كان في القسطنطينية من المحصورين.

وقد استطاعت المدافع العثمانية الضخمة أن تهد جزءًا من السور الخارجي عند وادي ليكوس، وقد امتلأ الخندق بأنقاض السور وشظايا القذائف، فاندفع الجنود العثمانيون نحو الثغرة، وكان ذلك في أصيل اليوم الثامن عشر من إبريل، وتسلقوا السور بالسلالم، وقذف جستنيان بجميع جنوده المدرعين إلى هذا الموضع، واشتد القتال بين الجانبين، وارتفعت الصيحات من هنا وهناك، وانتشر

خبر هجوم الأتـراك في المدينة فسـادها الذعر ودقت أجـراس الكنائس على أن الثغرة كانت من الضيق بحيث لم يكن الأترك يملكون فيها حرية الحركة والقتال، وإنهمرت عليهم الـسهام والنبال من كل جانب، واستمـر هذا القتال العنيف إلى أن أظلم الليل، فأمر الفاتح جنوده بالانسحاب بعد أن عجم قوة المدافعين.

وفي نفس ذلك اليوم حاولت بعض السفن التركية تحطيم القائمة على مدخل ميناء القرن الذهبـي واقتحامه، ولكن الـسـفن الرومية والإيطالية الحارسـة الواقعة وراءها كانت أكثر ارتفـاعًا، فسهل عليها أن تصب قذائفهـا ونيرانها علي السفن العثمانية الصغيرة القصيرة، وتردها عن محاولتها.

واغتبط أهل القسطنطينية وظنوا أن النصر قـد حالفهم وفرحوا بنجاحهم في صدِّ الأتراك في الـبر والبحـر، وقوي أملهم في صـدهم في المستـقبل، وذهب قسطنطين مع البطريك إلى كنيسة أياصوفيا وصلَّى صلاة الشكر لأنه انتصر.

أما السلطان الفـاتح فلم تهن عزيمته لهـذا الفشل، بل ضاعف جهـده ونشاطه ولم تكن هذه الهزيمة لتوهن عزيمته وتثبط همته، بل بعثت في نفسه القوة والحمية.

الثالث عشر - السفن القادمة والهزيمة الثانية

في صبيـحة يوم ٢٠ من إبريل ١٤٥٣م ظهرت في بحر مرمـرة خمس سفن نصرانية قـادمة من الغرب تحمل الطعام والمعدات والرجـال، أربع منها بعث بها البـابا وجنوا لمساعـدة القسطـنطينية والخـامسـة للإمبـراطور[1]. وقد كـان أهل القسطنطينية يتوقعون وصول مـثل هذا المدد ويترقبونه، وكان الأتراك من جانبهم على مثل هذا الـتوقع، وما أن علم السلطان الفـاتح بأمر هذه الـسـفن حتى ترك

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» يلماز أوزتونا (جـ١ - ص١٣٤).

موضعه في مركز القياد وأسرع على حصانه إلى شاطئ غلطة، وأمر قائده بالطة أوغلو بملاقاة هذه السفن، وقال له: «إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حيًا»[1].

وكان اليوم صحوًا والسماء صافية والريح تدفع السفن الخمس دفعًا نحو القسطنطينية، وتحفز بالطة أوغلو في طائفة من سفنه لملاقاتها وقتالها، ووقف الإمبراطور وأهل القسطنطينية على شرفة السور المطل على بحر مرمرة وأخذوا يلوحون بأيديهم للسفن النصرانية يشجعونها ويبتهلون إلى السماء أن تنصرها، ووقف السلطان محمد الفاتح مع بعض رجاله على ساحل غلطة ينتظرون المعركة، وقد امتلئوا ثقة بأن النصر سيكون حليفًا للسفن العثمانية، ولكن هذه السفن على كثرتها في العدد لم تقو علي مجالدة السفن النصرانية الخمس، وما لبثت أن تمزقت وتشتت، وذلك أن هذه السفن التركية قد بنيت قبيل البدء في حصار القسطنطينية في سرعة وعجل، فجاءت غير محكمة البناء، ولا متقنة الصنع، ولم يكن هناك من هذه السفن العديدة غير ثماني عشرة كانت على شيء من القوة، أما سائر السفن فكانت لا تعدو أن تكون قوارب صغيرة مكشوفة مملوءة بالجند، ولم يكن لها شيء من المدافع، وذلك لأن الأتراك في ذلك الحين كانوا حديثي العهد بالبحر وأساليب القتال في مياهه، فلم يكن لهم من العدة في القتال غير الشجاعة، وكان الطليان في ذلك العهد سادة البحر وفرسانه، بلا منازع وأمهر الناس في ركوبه وأساليب القتال فيه، وكانت السفن النصرانية الخمس فوق ذلك محكمة البناء، عالية الطول، كاملة العدة والعتاد، قد لَبِسَ رجالها الدروع والزرود، فأخذوا يطلقون قذائفهم ونيرانهم الفتاكة على

(١) د/ سالم الرشيدي ـ «محمد الفاتح».

القوارب العثمانية الصغيرة وهي تحاول بمجاديفها الخشبية مغالبة الريح الشديدة التي كانت تعوقها عن التقدم.

وسكنت الريح فجأة فوقفت السفن الخمس عن السير، وإنكمشت أشرعتها، وكانت قد قاربت مدخل القرن الذهبي، وتصاعدت صيحات الفرح من جانب الأتراك، وانتهز (بالطة أوغلو) هذه الفرصة، فانقض بسفنه على السفن الخمس واستبسل الأتراك في الهجوم قبل أن تهب عليهم الريح من جديد، وحاولوا خرق السفن النصرانية لإغراقها، فلم يوفقوا، وحاولوا إحراقها بالنار، ولكن سرعان ما يصب عليها الماء فيطفئها، وعاود (بالطة أوغلو) الهجوم مرة بعد أُخرى حتى اصيبت إحدى عينيه واحتدم القتال وأخذت الأتراك يقفزون إلى السفن النصرانية والجنود النصارى يطلقون قذائفهم ونيرانهم الإغريقية عليهم دون أن تحمي أجسامهم دروع فيتساقطون إلى البحر، ولم يبال العثمانيون جميع هذه المصاعب والشدائد، ولم يكن تسمع بينهم إلا كلمة واحدة الهجوم الهجوم!! فيندفعون إلى الأمام في حمية وجنون لتصرعهم القذائف الحجرية والنارية.

وكان السلطان الفاتح على شاطئ غلطة ينظر إلى هذا الصراع الدامي بعين لا تطرف، وهو لا يكاد يستقر في مجلسه فوق ظهر جواده، فلما رأى ما نزل بسفنه ورجاله من القتل والتمزيق لم يتمالك نفسه فاندفع نحو البحر حتى غاص حصانه إلى صدره، وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبالطة أوغلو بأعلى صوته: يا قبطان! يا قبطان!، ويلوح إليه بيده، وضاعف الأتراك جهودهم في الهجوم دون أن ينالوا منالاً من السفن الرومية، على أن رجالها قد بدأوا يشعرون بالجهد والإعياء، ولو أن الصراع امتدَّ وقتًا آخر لانتهى بهم حتمًا إلى الاستخزال والتسليم، وكانت الشمس تدنو من المغيب، وفجأة هبت الريح من الجنوب قوية رفرافة، فنشرت الأشرعة ومرقت السفن والخمس

من بين السفن التركية، وانفلتت إلى القرن الذهبي حيث أنزلت السلسلة الضخمة ثم شدَّها الروم مرة أُخرى ووصلت السفن إلى مـلاذٍ أمين، ثم خيَّم عليها الليل وطواها بظلامه[١].

ولوى السلطان الفـاتح عنان فرسه وخـرج من الماء وقد ابتلت أطـراف ثيابه وعلاها زبد البـحر الممـزدج بالدم إلى معـسكره وهو مطرق في صمت مـغيظ، واستدعى إليه قائده بالطة أوغلو وعنَّفه واتهمه بالجبن، وتأثر القائد (أوغلو) بهذا الاتهام، وقـال: «إنني أستـقبل الموت بجنان ثابت، ولكن يؤلمـني أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التـهمة، لقد قاتلت أنا ورجالي بكل ما كـان في وسعنا من حيلة وقوة»، ورفع طرف عمامته عن عينه، فإذا هي مصابة إصابة بالغة.

وأدرك محـمد عند ذلك أن قائده لم يقـصِّر في أداء واجبـه فتركـه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا[٢].

وقد ذكر المؤرخون الغربيون أن السلطان محمد الفاتح جَلَدَهُ بالسوط، إلا أن المؤرخين العثمانيين نفوا ذلك، ونفوا أنه من أصل بلغاري[٣].

وقد ذكر بيلماز أوزتونا أنه: «بلغ من شدة غضب محمد الفاتح لهذا الحادث أن قام بعزل (بالطة أوغلـو سليمان بك) ـ قائد القوة البـحـرية ـ الذي لم يتمكن من وقف هذه السفن، وعين بدلاً منه المشير البحري (قبودان دريا) أحمد بك بن جالي بك أحد قواد البحر السابقين[٤].

---

(١) بيلماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٣٤) «تاريخ الدولة العثمانية».
(٢) «تاريخ الدولة العثمانية» ـ بليماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٣٤).
(٣) أوزتونا (جـ١ ـ ص١٣٤).
(٤) ضياء شاكر ـ «تاريخ استانبول».

أمَّا أهل القسطنطينية فقد غمرتهم الفرحة بهذا النصر المبين، وزاد أملهم وثقتهم في المستقبل اعتقادهم أن هذه السفن الخمس التي جاءتهم بالزاد والعتاد والرجال الأشداء ما هي إلا طليعة لأسطول أكبر عددًا وأشد قوة، ولاح لهم في الأُفق أنهم سيهزمون الأتراك ويردونهم عن أسوار القسطنطينية، وأقيمت مواكب الأفراح والمهرجانات في المدينة ودقت أجراس الكنائس، وظل الناس طوال الليل ينشدون الأناشيد المقدسة ويتردد صداها في معسكر الأتراك، ولكن هذا المدد من الغرب كان المدد الوحيد الذي وصل إلى القسطنيطينية، وكان أشبه بومضة لمعت في ظلمة الليل ثم انطفأت.

الرابع عشر - الأسطول العثماني يسير في البر

كانت خطة هائلة ولربما كانت سببًا في فتح القسطنطينية وتحقيق النصر النهائي.

وقد استمرت المدافع العثمانية في قصف أسوار القسطنطينية ليلاً تدكها دكًا، وتهدها هدًا، واعتقد خليل باشا الذي كان ميَّالاً للروم سرًا أن الفرصة مواتية بعد هزيمة الأسطول العثماني ودخول السفن الرومية في القرن الذهبي لصرف السلطان الفاتح عن المضي في حصار القسطنطينية، فأشار عليه أن ينظر فيما عرضه عليه قسطنطين ويعقد معه الصلح قبل أن تأتي من الغرب قوات أُخرى لا قبل له بها، ولكن السلطان الفاتح إزدراه وأعرض عنه، وأصرَّ على عزمه على فتح القسطنطينية، وأيده في ذلك وزيره زغنوس باشا، والمولى الكوراني، والشيخ آق شمس الدين الذي كان يلهب حماس الجند بخطبه ومواعظه[1].

---

(١) «تاج التواريخ» سعد الدين.

وفكر السلطان محمد الفاتح في وسيلة لإدخال سفنه في القرن الذهبي للسيطرة على هذا الميناء وحصار القسطنطينية من أضعف جوانبها، وإضعاف الدفاع عن السور البري، وتشديد الإشراف على جنوبي غلطة الذين يعملون بوجهين، ثم تسهيل المواصلات مع قاعدته في (روملي حصار)، وقد حاولت السفن العثمانية تحطيم السلسلة الضخمة القائمة عند المدخل عدَّة مرات فلم توفق، وكان أحد طرفي السلسلة يقع في شاطئ غلطة مدينة الجنويين، وكانت العلاقات بينهم وبين الفاتح علاقة سلام، وإن كانوا يميلون بعواطفهم إلى الروم، ويتمنون لهم النصر، ولو أن السلطان الفاتح اقتحم غلطة واحتلها لتيسر له تحطيم السلسلة ويدخل في الميناء ما شاء من السفن، ولكنه بذلك يخلق لنفسه أعداء جدداً، وهو أحوج ما يكون إلى تجميع قواته ضد القسطنطينية، إذ كانت غلطة في ذلك الحين تحت حماية دوق ميلان، ولاحت للفاتح فكرة بارعة.

هذه الفكرة موجزها نقل السفن من مرساها في (بشكطاش) إلى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين المينائين، والمسافة بين المينائين ثلاثة أميال، وهي ليست أرضًا مبسوطة سهلة، ولكنها وهاد وتلال تعلو وتنخفض، تتلوى وتتعرج .. وبعد أن عُدَّت الأرض وسويت، أُتي بألواح من الخشب ودهنت الشحم، وصُفَّت على الطريق، ثم اختار الفاتح السفن الخفيفة وأمر بتزليقها على هذه الألواح المدهونة، ونشرت أشرعتها وجرَّها العمال فسارت كأنها على اليم، وألقى في القرن الذهبي نحو سبعين سفينة، وقم تم هذا العمل كله في ليلة واحدة (٢١-٢٢ إبريل)، وقد صرف الفاتح أنظار الروم في القسطنطينية والجنويين في غلطة وهم أقرب الناس إلى الشعور بهذا العمل الضخم[1].

---

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» بليماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٣٥).

ويقول المؤرخون[١]، عن هذا العمل الضخم من حيث التفكير والتكتيك العسكري: «تمت في ليلة ٢٢ إبريل عملية مذهلة، تمثلت في تسيير ٦٧ قطعة صغيرة من الأسطول التركي على البر (لتفادي السلسلة الغليظة التي تغلق خليج استانبول ـ القسطنطينية ـ) ومن مظاهر الإعجاز في هذه العملية أنها تمت في ليلة واحدة، ودون أن يشعر بها العدو».

وقد أحدثت هذه العملية إنهيارًا في معنويات البيزنط (الروم)، فقد أصبحوا يوم ٢٣ إبريل على منظر الخليج، وهو يموج بقطع الأسطول التركي، وقد كتب المؤرخ الفرنسي دوكاس والذي التقى بمحمد الفاتح شخصيًا، كتب يقول عن هذا الإنجاز: «ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار، وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الفاتح بهذا العمل الأسكندر الأكبر»[٢].

وكانت المفاجأة للبيزنط، فقد استيقظ أهل القسطنطينية في صباح ٢٢ إبريل على صيحات المسلمين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، وأناشيدهم الغليظة العالية، عقب نزولهم في ميناء القرن الذهبي، وأطلوا من فوق أسوارهم فرأوا تحت أعينهم قرابة سبعين سفينة تركية في الميناء برجالها ومعداتها، وانتابهم من الهلع والفزع شيء عظيم، ولم يكتموا إعجابهم بهذه الهمة الإسلامية العظيمة التي أظهرها العثمانيون، وكان ملكهم قسطنطين أشدهم تأثرًا، وقد إزدادت مخاوفة من المستقبل، ومضت الأحداث بعد ذلك على النسق التالي:

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٤، ١٣٥).

(٢) المصدر السابق (ص١٣٥).

- خلال ليلة واحدة، وهي الليلة التالية على ليلة ٢٢ إبريل، نصب الأتراك جسرًا على الخليج يسمح عرضه بمرور ٥ جنود جنبًا إلى جنب.

- أمر قسطنطين إمبراطور البيزنط ليلة ٢٨ إبريل بإبادة الأسطول التركي الذي جاء به محمد الفاتح عن طريق البر، وأنزل إلى الخليج وتدمير الجسر الذي تم نصبه، مهما كلف الأمر.

ولم تنجح هذه المحاولة، فلم يدمر الجسر ولم تغرق سفينة تركية واحدة، وفقد ١٥٠ بحارًا بيزنطيًا في هذه المحاولة.

وهناك أدرك قسطنطين والبيزنط أن المسلمين لهم بالمرصاد، أيقاظ لا رقود، وفرت السفن البيزنطية مذعورة تنشد لنفسها النجاة تلاحقها قذائف المدافع العثمانية، وقبض البحارة على بعض بحارة السفينة البندقية الغارقة وقتلوهم، فانتقم الإمبراطور قسطنطين لذلك، وعلَّق على أسوار القسطنطينية رؤوس مئتين وستين من أسرى المسلمين الذين كانوا فيها، وتملك البيزنط بعد هذه الهزيمة هم شديد ويأس قاتل.

ولم يقف الأمر عند هذا، ولكن الفشل في حرق السفن التركية قد أثار النزاع والخصومة في القسطنطينية بين البنادقة[1]، والجنويين[2]، وأخذ يكيل بعضهم لبعض أشنع التهم، اتهم الجنويون البنادقة وعلى رأسهم (جاكوموكوكو) بالجهل والتهور وعدم الدراية في قيادة السفن، الأمر الذي أدى إلي تلك النكبة الفاجعة، واتهم النبادقة الجنويين بالخيانة وإفشاء السر إلى الأتراك، فكانت تلك

---

(١) **البنادقة:** أهل مدينة البندقية وما حولها.

(٢) **الجنويون:** نسبة إلى جنوة في إيطاليا.

النكبة، واستحرّ الخلاف بين الفريقين وكادا يقتتلان لولا أن أسرع إليهم الإمبراطور وناشدهم الله أن يكفوا عن هذا النزاع، ولا يزيدوا المدينة كربًا وبلاءً على ما وقعت فيه من كرب وبلاء.

وجهز قسطنطين حملة ثانية لحرق السفن العثمانية بقيادة القائد الجنوي جستنيان، ولكنها لم تكن أكثر توفيقًا من سابقتها، ولم يكن من الممكن أن تظل السفن العثمانية والسفن البيزنطية قابعة هادئة في ميناء القرن الذهبي بغير صدام، فما لبث أن نشبت بينهما المعارك تلو المعارك، وتوالت الاشتباكات والاصطدامات يومًا بعد يوم، وكانت سجالاً بينهما.

وكانت المدفعية العثمانية بحق هي السلاح الرئيس الذي من خلاله تحقق النصر، فلم تتوقف عن إطلاق قذائفها خلال هذه الأحداث كلها، بينما يحاول البيزنط إصلاح أسوارها المتهدمة من جراء قذائف المدفعية المتتابعة، وسد الثغرات وإفراغ الخنادق من الأنقاض التي انهارت عليها فملأتها.

الخامس عشر- الحصار والقتال

اشتد الحصار المضروب على القسطنطينية، وبدأ أهلها منذ أوائل شهر مايو يشعرون بتناقص الطعام، واضطر كثير من الجنود أن يتركوا مواقعهم ليبحثوا عن طعامهم وطعام عائلاتهم، فأمر قسطنطين بأن يحمل إليهم الطعام في مواقعهم لكي لا تستهدف الأسوار من الأتراك، وكذلك توفير الطعام لعائلاتهم.

وأرسل قسطنطين إلى البنادقة في البندقية يستعجل إرسال النجدة والمعونة إلى القسطنطينية، وذلك حسب إتفاق سابق بينهما، واشتد القلق بقسطنطين واستبدل به الذعر، ونفد صبره فأعد سفينة صغيرة مسلحة اختار لها اثنى عشر

رجلاً من أمهر البحارة وأشجعهم، وجاء البطريك ورجال الأكليروس فباركوا السفينة ورجالها، ووضعوا فيها صورة العذراء ودعوا لها بالتوفيق والنجاح، ولبس هؤلاء البحارة الملابس التركية كما نصبوا على السفينة العلم العثماني، واستطاعت السفينة بذلك أن تتسلل وتفلت في ظلام الليل من بين السفن التركية الرابضة في بحر مرمرة دون أن تثير أي ريبة، وانطلقت ترتاد بحر الأرخبيل باحثة عن السفن البندقية[(١)].

في ذلك الوقت، شنَّ العثمانيون هجومًا عنيفًا على أسوار القسطنطينية، واشتد الضيق والكرب على المحصورين، فأشار بعض أهل الرأي وفي مقدمتهم البطريك وجستنيان على قسطنطين بالخروج من القسطنطينية إلى بعض الأمكنة القريبة المجاورة ويستنجد بنفسه هناك من حوله من النصارى، لعلهم يخفون إلى نجدته، ولعله حين يجأر باستغاثته يعجل البابا والبندقية في إرسال سفنهما ونجدتهما إليه، وقد يجد السلطان الفاتح نفسه مهددًا بجيش بيزنطي من خلفه فيرفع الحصار عن القسطنطينية.

ولكن قسطنطين رفض الخروج والتخلي عن شعبه المحاصر، وبعث رسلاً آخرين إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وسائر البلاد الأوربية يحملون الكتب إلى أمرائها وملوكها، بيَّن فيها الخطر المحدق بالقسطنطينية ووجوب المبادرة إلى إرسال المعونة والنجدة قبل فوات الأوان.

وفي الوقت نفسه عمد السلطان محمد الفاتح إلى تشديد الخناق على القسطنطينية من ناحية السور القائم على ميناء القرن الذهبي، ولما رأى أن السفن البيزنطية الكبيرة القوية الراسية في الميناء وتبلغ نحو ثلاثين، قد عاقت سفنه

---

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٩٥).

الصغيرة الموجودة هناك عن تسديد ضرباتها إلى السور، كما وقفت حارسه قويةً على السلسلة التي تسد مدخل الميناء، فقد صمم على إغراق السفن النصرانية بطريقة أخرى، فنصب على الهضاب الواقعة خلف (غلطة) مدافع جديدة ضخمة، أخذت تطلق قذائفها إلى الميناء، وقد وقعت إحدى القذائف على سفينة جنوية فأغرقتها في الحال، فذعرت بقية السفن النصرانية، ولاذت تحت أسوار غلطة، وأصبحت بعيدة عن القذائف، واشتكى الجنويون إلى السلطان محمد الفاتح من إغراق سفينتهم، وهم على الحياد حريصون على السلام، وكان الفاتح يعرفُ حقيقة أمرهم وموقفهم من القتال الدائر بينه وبين أهل القسطنطينية، فأجاب بأنه كان يجهل جنسية السفينة المغرقة، وكان يحسبها للعدو، ووعدهم بالتعويض فيما بعد.

توالت هجمات السفن العثمانية على ميناء القرن الذهبي مرة بعد مرة، كما ظل العثمانيون من ناحية البر يهجمون على السور مرة بعد مرة، وكان محمد الفاتح يهدف من وراء استمرار الهجمات وإطلاق القذائف في البر والبحر من غير انقطاع ليلاً ونهارًا إلى إنهاك عدوه وإنهاك قوى المحاصرين، وعدم السماح لهم بالراحة حتى أصبحت نفوسهم مرهقة مكدودة وأعصابهم مرهفة مجهودة تثور وتحتد لأقل شيء، وقد تكرر النزاع في القسطنطينية بين البنادقة والجنويين، وهما قبيلان قد أورثت فيهما التجارة والمغالبة على القوت والربح روح الحقد والتنافس منذ القدم. وكثيرًا ما انتهت هذه المنازعات بينهما في القسطنطينية إلى الحرب والقتال في شوارعها فيهرول إليهم قسطنطين، وقد اخضلت عيونه بالدمع ويضرع إليهم ويناشدهم الله ألا كفوا عن هذا النزاع والشجار، وأن ينصرفوا إلى قتال العدو الداهم.

ووقف أحد الرجال يقترح على قسطنطين أن يباغت العثمانيين بهجوم شديد عنيف وينقض على مخازن مؤونهم، فإن ذلك حري بإحياء العزيمة وبعث الهمة بين جنوده، ولكن بقية رجال قسطنطين استبعدوا هذا الرأي، ووصفوه بالتهور، وقال أحدهم[١]:

«إن مثل هذا العمل تهور وخيم العاقبة، لقد مضت خمسة أشهر على نضالنا ونستطيع بعون الله أن نواصل النضال والمقاومة زمنًا آخر طويلاً، إلا إذا كنَّا آثمين نستحق العقاب من الله، فلن تجدينا حينئذ أية مقاومة»

وفيما هم يتحدثون في هذا الأمر ويتشاورون، جاء من يخبرهم أن العثمانيين قد شنوا هجومًا شديدًا على وادي ليكوس، فوثب قسطنطين على فرسه، وأسرع إلى موضع الهجوم حيث كان القتال لا يزال محتدمًا على أشده بين العثمانيين والمدافعين، فاستدعى قسطنطين الجند الاحتياطي إلى هذا الموضع، واستمر القتال إلى آخر الليل، وذهب كثير من الناس إلى الكنائس يصلون ويتضرعون حتى مطلع الفجر عندما بلغهم إنسحاب الأتراك العثمانيين، وكان ذلك في الثاني عشر من مايو.

وبعد يومين نقل محمد الفاتح مدافعه من هضاب (غلطة) وضمها إلى المدافع المنصوبة أمام (طوب قبو) ليضاعف ضربات مدفعيته على أضعف نقطة في السور البري، وقد قاوم المدافعون من الروم واللاتين وحدهم الخطر مقاومة قوية باسلة يواصلون العمل ليل نهار لسد الثغرات وإصلاح الضرر.

---

(١) الدوق نوتاراس. انظر: «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٩٧).

السادس عشر - الأنفاق العجيبة

لعل من أسباب تحقيق النصر الغالي هو ذهن محمد الفاتح المتوقد دائمًا بالأفكار وفنون الحرب والقتال، سواء أكانت نفسية أو عسكرية.

فذات ليلة سمع المحصورون من أهل القسطنطينية ضربات غليظة شديدة تحت الأرض أخذت تعلو وتقترب شيئًا فشيئًا، كأنها تتلمس طريق الخروج، وحمل الخبر إلى الإمبراطور قسطنطين وكبار رجال الجند، فأسرعوا إلى المكان، وطلب الإمبراطور قسطنطين جميع من في المدينة من المهندسين والفنيين، وكان فيهم مهندس نمساوي حاذق يدعى (جان جرانت)، وأدرك لساعته أن المسلمين قد حفروا نفقًا من خارج السور ليدخلوا المدينة من تحت الأرض، فأمر بأن يُحفر نفقٌ تجاه نفق المسلمين إلى مسافة بعيدة وأمر العمال بعد ذلك بالكف عن الحفر والصعود إلى سطح الأرض، ولبثوا جميعًا ينظرون في سكون ظهور الأتراك العثمانيين، ولم يكن العثمانيون يعلمون شيئًا مما دُبِّر لهم، واستمروا يحفرون وما إن وصلوا إلى الفجوة التي حفرها الروم حتى تملكهم الفرح، وظنوا أنهم اهتدوا إلى سرداب خفي يوصِّل إلى المدينة، ولكن هذا الفرح لم يطل، فلم تكد أعينهم تلمح السماء من خلال الحفرة حتى صبَّ الروم عليهم النار والنفط والمواد الحارقة المهلكة، فمنهم من اختنق واحترق ومنهم مَن فرَّ وعاد أدراجه.

ولكن لم ييأس المسلمون بعد هذا الفشل، فعادوا مرة أخرى للحفر في مواضع مختلفة من المنطقة الممتدة بين أكرى قبو وشاطئ المنطقة الذهبي، إذ كانت هذه المنطقة هي أصلح مكان للقيام بهذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر الحصار.

ومهما يكن من نتائج حفر هذه الأنفاق، فإن مجرد علم البيزنطيين بها جعلهم في خوف وقلق، وظن بأن الأمر جد خطير حينما يخرج عليهم من

تحت الأرض من يقضي عليهم، وأصبحت الأنفاق حربًا نفسية أصابت البيزنطيين في مقتل حتى أن كثيرًا منهم صاروا يتسمَّعون بين حين وحين إلى موطئ قدمهم، وكثيرًا ما كان يخيل لهم الخوف أن الأرض ستنشق ويخرج منها جنود مسلمون!!

ورغم أن هذه الأنفاق كلفت كثير من العثمانيين حياتهم، فمنهم من مات اختناقًا، ومنهم من مات احتراقًا، وبعضهم وقع في أسر جُند بيزنطة، ومع كل هذا فقد زادهم كل هذا إصرارًا وتصميمًا وعنادًا، حتى أن هذه الشجاعة والبسالة أثارت إعجاب أعدائهم من أهل القسطنطينية، كما أثارت الرعب والخوف في نفس هؤلاء أيضًا.

السابع عشر- قلعة الفاتح

في الوقت الذي كان الرعب يخيم على أهل القسطنطينية من الأنفاق وما صاحبها من خوف وإنعدام ثقة لديهم، خرج محمد الفاتح بفكرة جديدة يتجنب من خلالها ارتفاع أسوار القسطنطينية، فقد فاجأهم الفاتح باختراع جديد يعد وسيلة من وسائل الحصار، فقد استيقظ أهل القسطنطينية في صباح الحادي والعشرين من مايو، فإذا بهم يرون أمامهم قلعة ضخمة شامخة من الخشب، أكثر ارتفاعًا وسمكًا من السور الخارجي، ذات ثلاث طبقات قد كسيت كلها بالجلود السميكة المبللة بالماء؛ لئلا تؤثر فيها النار والنبال، وكان في كل طبقة منها عدد من الجنود يحملون القذائف ومختلف معدات القتال، وتحمل في أسفلها التراب والأحجار والأخشاب لردم الخنادق، وفي أعلاها سلالم من الحبال عصبت في أطرافها كلاليب يلقونها على أعلى السور فتنشب فيها ويمر عليها الجند كالقنطرة، بينما النبالة يصوبون نبالهم إلى كل من يظهر رأسه علي السور

من المدافعين، ولم يكن في إمكان هؤلاء المدافعين استعمال مدافعهم الكبيرة فوق السور، لأن اهتزازها عند الإطلاق قد يزلزله ويهدُّه.

وقد هال أهل القسطنطينية أمر هذه القلعة الجبارة، ووقف الإمبراطور قسطنطين ومن معه من أهل مدينة القسطنطينية ينظرون إليها في عجب ودهش وفزع، ولم يدر الناس إلى من يلجأون، فما أصابهم من رعب من العثمانيين الذين يفزعونهم كل يوم بأفكار ومفاجآت، وقد قال أحد المؤرخين[1] البنادقة الذين شهدوا هذه القلعة الجبارة، قال: «لو اجتمع جميع نصارى القسطنطينية على أن يصنعوا مثل هذه القلعة لما صنعوها في شهر، وقد صنعها المسلمون في ليلة واحدة، بل في أقل من أربع ساعات».

أقيمت هذه القلعة تجاه طوب قبو (باب المدفع) والذي كُلِّف بالدفاع عنه القائد الإيطالي الجنوي (جستنيان)، وفرقته المقاتلة، ولم يعد في إمكان المحاصرين في الداخل إصلاح الثغرات الخارجية التي تدكها المدافع العثمانية، لأن هذا القلعة الجبارة واقفة بالمرصاد، بل ساهمت هذه القلعة في دك الأبراج القوية عند (طوب قبو)، واندفع المسلمون نحو هذه الثغرة، واقتربت القلعة من السور، وكان الجنود العثمانيون في هجومهم يصيحون صيحات مرعبة وتسلق كثير منهم السور بالسلالم وحمى القتال واشتد الخطر على المدينة، ولاح للإمبراطور أن الهزيمة في هذه المعركة ستؤدي إلى كارثة، فاستبسل هو وجميع رجاله في القتال، وطلب إحضار مواد سريعة الالتهاب تحرق كل ما يصادفها ولا يطفئها الماء، وأخذ المدافعون يقذفون بها على القلعة الخشبية فما لبثت أن احترقت الجلود المبللة التي تكسوها والتهمتها النار، وكان الليل قد أظلم فتوقف

---

(١) هو المؤرخ البندقي: باربارد.

القتال، وانسحب الأتراك، وابتهج قسطنطين لهذا النصر، وحث أهل المدينة رجالاً ونساءً وأطفالاً على إصلاح البرج المتهدم.

وما أشرق الصباح إلا وكان قد عاد إلى حالته الأولى من القوة والمناعة، ونظر السلطان الفاتح إلى قلعته الخشبية فإذا هي كومة من رماد، فما زاد على أن ابتسم ابتسامة يكمن وراءها العزم والتصميم، فقال لمهندسه مصلح الدين: «غداً نصنع أربعًا أخرى غيرها»[1].

الثامن عشر - المعارك الحاسمة قبل الفتح

كانت عملية نقل حوالي سبعين سفينة في ليلة واحدة بمثابة إحكام الحصار البحري حول القسطنطينية، فمن يوم أن نقلت هذه السفن عن طريق البر، وأنزلت في القرن الذهبي تخلخل أقوى دفاعات القسطنطينية، وأصبح الفاتح ينافس عدوه في أشد أنواع أسلحته وهو السلاح البحري.

وكان قصف المدفعية المستمر بمثابة تمويه كبير حتى لا يلفت أنظار البيزنطيين تجاه عملية نقل السفن، ونجحت الخطة في صرف انتباه البيزنطيين والجنويين الذين دهشوا عندما شاهدوا السفن العثمانية داخل القرن الذهبي، وكما ذكرنا فإن الصدمة كانت عنيفة، إذ أن هذه العملية أحدثت إنهياراً في معنويات البيزنطيين؛ لأن الأسوار في هذه الناحية كانت ضعيفة ولم يكن يعتمد عليها لاستبعاد وصول أسطول معاد داخل الميناء.

وبعد ستة أسابيع من الحصار والقصف، تبلورت مواقع اقتحام المدينة أمام السلطان محمد الفاتح، وهي ثلاث مواضع للهجوم، واقتحام القسطنطينية وهي:

---

(١) ضياء شاكر «فتح استانبول».

أولاً - ما بين تقفورسراي وباب أدرنة.

ثانياً - في وادي ليكوس عند طوب قبـو (باب المدفع)، وهو أكثـر المواقع تهدمًا وإنهيارًا من قذائف المدافع.

ثالثاً - بالقرب من الباب العسكري الثالث[1].

ومنعًا لمزيد من سفك الدماء، بعث السلطان العثماني رسولاً إلى الإمبراطور البيزنطي قسطنطين، يدعوه إلى تسليم المدينة، وذلك مقابل شرطين هما:

١ - أن يخـرج الإمبراطور وحـاشيـته بكل الأمـوال والذهب، ويذهب إلى شـبه جزيرة المورة، ويحكمها تحت سيادة الدولة العثمانية.

٢ - ضمان حياة السكان وأمنهم بعد دخول الجيش العثماني إلى المدينة[2].

لكن قسطنطين رفض هذا العرض الذي أرسله له محمد الفاتح مع أمير سينبوب.

التاسع عشر - المجلس الحربي

عقد السلطان مـحمد الفاتح مجلسًا حـربيًا لتدارس الموقف الذي وصل إلى ذروة التصعـيد، وفي خيمتـه الضخمة عـقد مجلسه الذي حضـره وزراؤه وكبار رجال جـيشه والشـيوخ والعلمـاء للنظر في (تقدير الموقف) ومـا يجب اتخاذه، وطلب الفاتح من الحـاضرين أن يعلن كل منهم رأيه في حرية وصراحـة، فأشار عليه بعض الحاضرين بالمبادرة إلى الهجـوم العام على المدينة فورًا قبل أن يتسرب اليأس إلى نفـوس الجنود، وقام الوزير خليل باشا الذي كان يميل إلى البـيزنطيين وتحدث بإنهزامية ومكر فقال:

---

(١) «محمد الفاتح» د/ الرشيدي (ص١٠٣) طبعة طنطا مصر.

(٢) «فتح القسطنطينية» - برناردين كلتي - ترجمة شكري محمود نديم. مكتبة النهضة - بغداد - ١٩٦٢م.

«إن الحمية والحماس شيء جميل يستحق التقدير والثناء، ولكن يجب التريث والتبصر قبل الهجوم على قلعة قوية كالقسطنطينية، فقد حاضرت أكبر الجيوش في العالم هذه القلعة أكثر من سبع وعشرين مرة، انتهت كلها بالخيبة والفشل والهزيمة، والمهم ليس ضرب الحصار على المدينة، بل الاستيلاء عليها، وقد مضى الآن أكثر من أربعين يومًا على حصارنا لها، وبذلنا في ذلك أغلى التضحيات وأفدحها، ولم تبدُ أية بارقة للنجاح، فالأنفاق التي حفرناها لم تجدنا شيئًا والقلاع الخشبية حرقت والمهندسون قتلوا.

وقد كنت أشرت من قبل بدء الحصار أن هذا العمل أمر عسير لن يحقق الغاية التي نريدها، وقد ظهر لكم الآن صدق قولي ورجاحة رأيي بعد أن مضى عليه أكثر من أربعين يومًا، وإذا أحسنا الفرض والظن واستولينا على القسطنطينية فإن شعوب النصرانية كلها ستتألب علينا وتزحف إلينا بجموع لا قبل لنا بها، ولن تدعنا حتى تسترد القسطنطينية من أيدينا، فخير لنا أن نقنع بجزية كبيرة نطلبها من قسطنطين ونرفع الحصار عن المدينة ونعود إلى ديارنا في الوقت الذي نسطيع أن نفعل ذلك في أمان»[1].

نشعر خلال متابعتنا لكلام الوزير خليل باشا بأنه يثبط الهمم، ويلقي باللوم من بعيد على السلطان الفاتح، وأن حديثًا مثل هذا أمام قادة الجيش وصفوة رجال القيادة يثير زعزعة في النفوس تثير الريبة والشك.

ولكن محمد الفاتح رغم رؤيته وريبته في خليل باشا احتوى الأمر، وأجَّل معاقبة خليل باشا، وجعله يكمل حديثه الإنهزامي الماكر إلى النهاية ثم تبسم

---

(١) الرشيدي (ص١٠٥).

ونظر لزغنوش باشا الذي يعد أحد أبطال حفر الأنفاق، فقد أشرف على حفر الأنفاق تحت أسوار القسطنطينية لاقتحامها من باطن الأرض، وسأله عن رأيه، فقال زغنوش باشا: «حاشا وكلا أيها السلطان، أنا لا أقبل أبدًا ما قاله خليل باشا، فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع».

بث هذا الكلام الأمل في نفوس الحاضرين، وكان له وقعًا عظيمًا، ثم واصل زغنوش حديثه قائلاً: «إن خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة، ولكنه لن يبوء إلا بالخيبة والخسران، إن جيش أسكندر الكبير الذي قام من اليونان وزحف إلى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن أكبر من جيشنا، فإن كان ذلك الجيش استطاع أن يستولي على تلك الأراضي العظيمة الواسعة أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة.

وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم، ولكن ما الدول الغربية هذه؟ هل هي الدول اللاتينية التي شغلها ما بينها من خصام وتنافس، هل هي دول البحر الأبيض المتوسط التي لا تقد على شيء غير القرصنة واللصوصية؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصرة بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن، ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبوا إلى الحرب وقاتلونا، فهل سنقف مكتوفي الأيدي بغير حراك أوليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا؟

يا صاحب السلطة، أما وقد سألتني رأيي فلأعلنها كلمة صريحة: يجب أن تكون قلوبنا قوية كالصخر، ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا أقل ضعف أو خور، لقد بدأنا أمرًا فواجب علينا أن نتمَّه، ويجب أن نزيد هجماتنا

قوة وشدة، ونفتح ثغرات جديدة وننقض على العدو بشجاعة، لا أعرف شيئًا غير هذا، ولا أستطيع أن أقول شيئًا غير هذا».

كانت هذه الكلمات بمثابة برد وسلام أنعش النفوس وأثلج الصدور، وبدت على وجه محمد الفاتح أمارات البشر والإنشراح لسماع هذا القول، والتفت إلى القائد طرخان يسأله رأيه، فأجاب على الفور: «إن زغنوش باشا قد أصاب فيما قال، وأنا على رأيه يا سلطاني».

ثم سأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكوراني عن رأيهما، وكان الفاتح يثق بهما ثقة كبيرة فوافقا على رأي زغنوش باشا وقالا: «يجب الاستمرار في الحرب، وبالعناية الصمدانية سيكون لنا النصر والظفر».

وسرت الحمية والحماس في جميع الحاضرين، وابتهج السلطان محمد الفاتح، واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر، ولم يملك نفسه، حتى أنه قال: «مَنْ كان مِنْ أجدادي في مثل قوتي؟.

أما خليل باشا، فقد خرج من المجلس مخزولاً؛ لأن هذا المجلس كشف ضعفه ووهنه وإرجافه، وتثبيطه لهمم الناس.

واستدعى السلطان الفاتح وزيره زغنوش باشا وقال له: «يجب أن لا نضيع شيئًا من الوقت، فقد دُكت الأسوار وأعدت العدة للهجوم، وتخيرنا مواضعه، فاذهب إلى الجنود وأخبرهم أن ساعة الهجوم قد أزفت، وانظر أثر هذا القول فيهم وارجع إليَّ به».

ذهب زغنوش باشا إلى المعسكر على الفور وجمع الجنود حوله ثم قال لهم: «إن سلطاننا المعظم يرى أن الحصار والغارات التي دامت سبعة أسابيع كافية، وآن

أوان الهجوم العام، ولا أدري متى يُصْدِر أمْرَهُ، وأظنه قريبًا جدًا، لقد حانت الساعة لكي تظهروا شجاعتكم وبسالتكم في هذا الهجوم، ولاريب في أنه يحتاج إلى أعظم الجهد وأكبر التضحيات، فهل أنتم مستعدون؟».

عندئذ هتف الجنود بصوت واحد له دوي بلغ عنان السماء: الله أكبر.

ولما همَّ زغنوش بالعودة إلى السلطان الفاتح، تكلم بعض الإنكشارية وقالوا له: إنَّ لنا رجاء من سلطاننا، فأجاب زغنوش باشا: وما هو؟ قالوا: نرجوا من السلطان أن يطلق سراح إخواننا ورفقائنا الذي كانوا يقاتلون مع (بالطة أوغلو)، وغضب عليهم وسجنهم ليشاركونا فرصتنا بالنصر على العدو إن شاء الله. فقال: سأذكر رجاءكم عند السلطان، وسيعفو عنهم إن شاء الله.

عاد زغنوش إلى خيمة محمد الفاتح الذي كان ينتظره بشوق عارم، وأبلغه الروح العالية لجنوده، فسعد محمد الفاتح سعادة بالغة، وقال لزغنوش باشا: يجب أن يستعد الجيش الآن، وبإذن الله تعالى سنقتحم القلعة، فقال زغنوش: لتكن غزوتك غزوة مباركة يا سلطاني، وليسدد الله خطانا جميعًا.

كان السلطان محمد الفاتح مسلمًا يرعى حق دينه، ويستعين بالله في كل عمل يقوم به، فقد أمر جنوده بالصيام في يوم الأحد ٢٧ مايو - أي قبل بدء الهجوم الشامل بيومين - وكانت دعوته الجنود للصيام تطهيراً وتزكية للنفوس وتقوية للعزيمة والإرادة.

وتفقد الفاتح في ذلك اليوم سور القسطنطينية من بحر مرمرة إلى القرن الذهبي يتفحص أجزاءه بدقة، ويرى ما أحدثته مدفعيته من ثغرات والمواضع التي تحتاج إلى الدك والهدم. ولم تنقطع المدافع طوال ذلك اليوم، واليوم التالي عن إطلاق قذائفها وبخاصة المواضع التي رممها المحاصرون.

وفي المساء أوقد الجنود العثمانيون النيران والمشاعل والقناديل، وأشعلت الشموع على رؤوس الرماح حول معسكرهم وتصاعد الضوء إلى الفضاء في توهج وتلهب، حتى استحالت السماء إلى قبة حمراء وتعالت صيحات المسلمين وهم يهتفون بأعلى صوتهم: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

ودقت الطبول ونفخ في الأبواق وارتفعت الأناشيد الحماسية، وأخذ فريق من الشيوخ والعلماء يقرأون القصائد والأذكار الدينية، ويصف أحد الأساقفة الذين شاهدوا هذا المشهد فيقول: «لو أنك سمعت مثلنا صيحاتهم المتوالية المتصاعدة إلى السماء «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، لأخذتك الروعة والإعجاب»[1].

ونزل الروم من فوق السور وقد تملك قلوبهم اليأس والقنوط، وذهب كثير منهم إلى الكنائس يبتهلون ويتضرعون، وعلا بينهم النحيب والبكاء، وعند منتصف الليل اطفئت النيران والمشاعل في المعسكر الإسلامي وتغشاه ظلام دامس وسكون شامل لم يكونا أقل روعة ورهبة.

وقد قضى السلطان الفاتح اليوم التالي (الاثنين ٢٨ مايو) في وضع اللمسات الأخيرة، وإكمال استعداداته للهجوم فطاف بالسور مرة أخرى يتعرفه وفتش جنوده، ثم قصد إلى مرسى أسطوله في بشكطاس يصحبه حمزة باشا أمير البحر ليطلع بنفسه على ما اتخذه من استدادات، وكان الفاتح كلما مرَّ بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس، وكان الشيوخ والعلماء يتلون على الجند آيات القتال والجهاد، وما أعد الله للمجاهدين من حسن الجزاء، ثم يقولون

---

(١) انظر: «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي.

لهم: «لقد نزل سيدنا محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا»[١].

وقد تأثر الجنود بهذه الأقوال، والتهبت حماستهم فسجدوا إلى الله يدعونه أن يتم لهم النصر . . ومن ذلك نتبين مدى الجهد الذي بذله محمد الفاتح ورجاله لرفع معنويات جيشه وتهيئته معنويًا بعد أن تم إعداده عسكريًا إعدادًا جيدًا.

وعاد محمد الفاتح بعد هذه الجولة التي اطمأن فيها على الثغور والجنود والمدافع والقوات البحرية، عاد إلى خيمته حيث مقر القيادة، ودعا إليه كبار قادة الجيش وأصدر إليهم التعليمات الأخيره، وألقى عليهم الخطبة التالية:

«إذا تم فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقرير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه؛ فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة والذين لا يقاتلون».

وأخلد الجنود إلى الراحة والنوم استجماعًا للقوة والنشاط، واستعدادًا للقتال الذي أوشك على البدء، وخيم على المعسكر الإسلامي سكون عميق شامل أثار دهشة أهل القسطنطينية وأثار بينهم كثيرًا من التساؤل والقلق، وأحس الناس أن عاصفة ستهب قريبًا وأن هجومًا وشيكًا سيقع، فدقت أجراس الكنائس تدعوا الناس إلى الصلاة والدعاء والاستعداد والتأهب.

(١) أحمد مختار باشا - «فتح جليل قسطنطينية».

العشرون - قسطنطين والخوف

تزايد إحساس الناس في القسطنطينية بالخوف والخطر واقتراب الهجوم العام، فأمر الإمبراطور قسطنطين بإقامة ابتهال عام، فقام موكب من رجال الدين الأرثوذكسي والكاثوليكي والنساء والأطفال والشيوخ وحملوا معهم صور العذراء والذخائر المقدسة وطافوا في شوارع المدينة وهم يبكون وينتحبون ويمزقون شعورهم، وينشدون الأناشيد الدينية الحزينة المشجية ويضرَّعون إلى الله أن يغفر ذنوبهم ويتوب عليهم، وينجيهم من الهلاك، ثم قصدوا إلى أسوار المدينة، فصعد القسس والرهبان ومعهم صور العذراء إلى الشرفات والمواضع العالية، لاسيما عند باب المدفع (طوب قبو)، حيث كانت الثغرات التي أحدثتها مدافع الأتراك واسعة، وغمر نفوس الناس شيء من الهدوء والسكينة ثم خطب قسطنطين في جنوده وكبار رجال دولته، وكانت آخر خطبة له الذي قال فيها:

«أيها المحاربون أعدوا أنفسكم للقتال والتضحية بأنفسكم وأرواحكم في سبيل البلدة المقدسة وفي سبيل النصرانية» ثم أمسك بمقبض سيفه الذهبي واستطرد يقول: «إن الساعة الخطرة الفاصلة التي ارتقبناها منذ أيام قد أزفت، إن الرجل ليقاتل ذودًا عن دينه أو وطنه أو ملكه وأهله وولده، فكيف وقد جاءت هذه الأسباب كلها مجتمعة؟

والقسطنطينية هي معقل النصرانية وملكة المدن، وقد كانت زمنًا ما عاصمة الدنيا، لقد مضت ثلاثة وخمسون يومًا والعدو يحاصر المدينة بكل عتاده وقواه، وقد رددناه عن أسوارنا بفضل الله وبفضل شجاعتكم، وهو يتأهب الآن ليضرب ضربته الأخيرة . . فاثبتوا له كما ثبتم من قبل وادفعوا اليوم عن أسواركم كما دفعتموه بالأمس حتى تخور قواه وينتكص على أعقابه.

أيهـا الإخوان: إنكم سـلالة صناديد أثينا وأبطـال روما، فكونوا أهلاً لهـذا النسب الرفيع، ولا تخيفنكم صيحات العـدو ونيرانه المتصاعدة، وشدوا عزيمتكم واصدقوا في القتال، وإذا كانت للعدو مدافعه وجنوده وفرسانه فإن لنا الله حامينا فلنضع ثقتنا فيه وسيمدنا بقوته ومعونته»[١].

ثم التفت إلى كل من البنادقة والجنويين فـشكرهم وأثنى عليهم وحثهم على مواصلة الكفاح وأعلن أنه سيدافع حتى الموت، وأن النصر لهم ما اتبعوا أمره.

ثم توجه إلى كنيسة أياصوفيا، وصلى مع الناس، وكانت آخر صلاة نصرانية في أياصوفيا، ونهض قسطنطين بعد الصلاة وعيونه دامعة واعتذر للناس، وطلب الصفح إن كان قـد أصاب أحدًا منهم بسوء أو أذى وبكى الناس لبـكائه ونهضوا يتعانقون يستصفح بعضهم بعضًا ويستغفر . . كأنهم في وداع أخير.

وعاد المدافـعون إلى أماكنهم عنـد السور الخارجي، واتخـذ الجنود المدرَّعون أماكنهم في الصفوف الأمامية، ونادى المنادي في أرجاء المدينة: «أيها الناس، إن بوادر الهجوم، هجوم الأتراك الأعظم قـد لاحت، فكونوا أقوياء أشداء وأسرعوا إلى القلاع وعانوا الجنود الشجعان الذي يدافعون عنها كالأسود».

وقام القسس والرهبان من جانبـهم بإلقاء المواعظ على سكان المدينة وبخاصة النساء يحثونهم على الـثبات ويبثون في نفسوهم الثـقة والطمأنينة قائلين: إن الله قد تقبل دموعنا ودعواتنا وصلواتنا ولن يمكن العدو من مدينتنا وكنائسنا.

وخطب قنصل البنادقة في جنود اللاتين فأثنى عليـهم وطالبهم بالدفاع عن دينهم، ومـا إن اتخذ المدافـعـون أماكنهم حـتى أغلقت جـميع أبواب الســور

---

(١) الرشيدي (ص١١٢).

الداخلي المؤدية إلى داخل المدينة؛ كي لا يكون هناك مجال للفرار، فإما أن ينتصروا أو يموتوا.

الحادي والعشرون - الهجوم النهائي والفتح

أتم الفاتح استعداداته، ومن جهة البحر أقلعت سفنه من مرساها في بشكطاش واصطفت تجاه السور القائم على بحر مرمرة، وأعدت العدَّة لتسلقه بالسلالم والحبال.

وقبيل منتصف الليل بقليل رزت السماء رذًا خفيفًا من المطر، كأنما كانت ترش الأرض رشًا، فخرج السلطان الفاتح إلى باب خيمته ورفع بصره إلى السماء وقال، وقد سمعه من حوله من الحرس: «لقد أولانا الله رحمته وعنايته، فأنزل هذا المطر المبارك في أوانه، فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة».

وفي المقابل فرح الروم واغتبطوا عند ما بدأت السماء تمطر، واعتقدوا أن دعواتهم وصلواتهم قد استجيبت، وأن هذا المطر سيكون وابلاً مدرارًا تستوصل منه الأرض، فتصعب الطرق والمواصلات، ويعجز العثمانيون عن الهجوم، لكن المطر لم يدم طويلاً، وما لبث أن توقف وانتشهت السحب، ولمع النجوم في السماء، وخاب رجاء الروم، ولم يبق على بدء المعركة إلا قليل من الوقت.

ومع الساعات الأولى من صباح الثلاثاء (٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ - ٢٩ مايوم ١٤٥٣م) سُمعت فجأة من المعسكر العثماني دقة ضخمة بالطبل إيذانًا للجند بالتأهب أعقبتها ثلاث دقات أُخرى، ثم تتابعت الدقات في جميع أرجاء المعسكر، ونفخ في الأبواق وتصاعدت التكبيرات مدوية مجلجلة من جانبي البر والبحر، وكان لذلك كله دوي هائل مخيف في ذلك السكون العميق المظلم،

أثار الفزع والرعب في قلوب أهل القسطنطينية، وهرع كثير منهم إلى الكنائس ودقت أجراسها، وانطلق الجنود العثمانيون يهجمون على سور القسطنطينية من البر والبحر.

وكان أشد الهجوم وأعنفه قد ركز وسُدِّد نحو وادي ليكوس القائم بين (طوب قبو) في الجنوب، وباب أدرنة في الشمال، وكان هذان البابان يقعان على ربوة مرتفعة، ويقع الوادي بينهما منخفضًا، وكان السور القائم في هذا الموضع وبخاصة الجانب الذي يلاصق طوب قبو قد تهدم تهدمًا كبيرًا، وأقام جستنيان في مكانه متراسًا قويًا تحصَّن به.

وقد جعل السلطان محمد الفاتح جنوده الذي يقاتلون في هذه المنطقة ثلاثة أقسام:

القسم الأول - مؤلف من جنود الروملي والمتطوعين الحديثي العهد بالقتال من أجناس مختلفة، تقدم هؤلاء الجنود إلى الأمام حتى إذا صاروا على مرمى قوس من السور توقفوا وأخذوا يمطرونه بالقذائف والسهام، وردَّ عليهم المدافعون بالمثل، ثم اندفع فجأة تحت هذا الوابل من القذائف من النبال كثير من المهاجمين نحو السور وأقاموا عليه مئات السلالم لتسلقه، فأسرع المدافعون وقلبوا هذه السلالم بمن كان عليها، وقذفوا وراءهم الصخور والجلاميد الضخمة.

ولم يمنع ذلك المهاجمين من معاودة تسلق السور مرة بعد مرة ونجح بعضهم في ارتقائه وحدث على انقاضه قتال عنيف رجل لرجل استمات فيه جستنيان وجنوده المدرعون الشجعان، واستطاعوا دفع المهاجمين الذين تكاثرت عليهم ضربات السيوف والرماح والنبال وسقطوا صرعى واستمر القتال على هذه الصورة العنيفة المريرة نحو ساعتين.

وكان السلطان محمد الفاتح يرقب هذه المعركة من فوق صهوة جواده ويدرك شدة بأس المدافعين وقوة مراسهم وحسن موقعهم المرتفع الذي يقاتلون فيه، ويصبون منه نيرانهم وقذائفهم على من تحتهم من المهاجمين. وكان السلطان محمد الفاتح يرمي بهذا الهجوم إلى إرهاق المحصورين وإنهاك قواهم واستنزاف طاقاتهم قبل أن يضربهم الضربة الشديدة القاضية، فأمر جنوده بعد نحو ساعتين من هذا القتال العنيف بالإنسحاب، ودفع إلى الهجوم.

القسم الثاني - من جنوده وهم جنود الأناضول، أما المدافعون فقد ظنوا لأول وهلة عند إنسحاب المهاجمين أن الأتراك قد دحروا ونكصوا على أعقابهم وعدلوا عن مواصلة القتال، ولكنهم لم يكادوا يتنفسون الصعداء حتى بوغتوا بهجوم أشد وطأة وعنفًا من الهجوم الأول، فقد كان جنود الأناضول أحسن تنظيمًا وتدريبًا وأكثر مراسًا في القتال.

وانهزم الظلام أمام النور، وكانت أشعة الفجر قد بدأت تنير المكان، واندفع هؤلاء الجنود يهجمون على السور وقد لبس بعضهم الدروع وهم يكبرون بصوت كهزيم الرعد، وأقام كثير منهم السلالم للتسلق وأدرك قسطنطين خطر الموقف فأتى إلى هذا المكان بمزيد من الجند وآلات الرمي والقذائف ونصب المدافع الصغيرة، ونشط جستنيان وجنوده المدرعون الشجعان وقاوموا هذا الهجوم العنيف مقاومة عنيفة مستميتة، وصبوا قذائفهم ونيرانهم الحامية على المهاجمين وقلبوا السلالم التي أسندت إلى السور، ولكن ذلك لم يزد العثمانيين إلا حماسًا وشدة في القتال.

ووقف الفاتح على ظهر حصانه (جامبولات) يرقب هذا العراك الدامي العنيف، وكان أشد القتال يجرب على السور نفسه حيث التحم المهاجمون والمدافعون في صراع بالأجساد وتردد النصر بين الفريقين، ولكن القذائف

والسهام تهطلت علي الأتراك بغير هوادة، وتهاووا صرعى إلى الأرض فأمر السلطان محمد الفاتح بسحب جنوده واستعمال المدافع مرة أخرى، فنصبت في أقرب مكان من السور، وزحف الجنود العثمانيون تحت ستار الدخان والغبار، وهجموا مرة أخرى على السور، ولكن جستنيان وجنوده المدرعين الشجعان ثبتوا لهذا الهجوم أيضًا . . !!

وبينما كان القتال يجري هكذا عنيفًا مريرًا عند السور البري، كان هناك قتال آخر لا يقل عنفًا وشدة على جانب البحر، فقد أخذت السفن العثمانية التي يقودها أمير البحر حمزة باشا في بحر مرمرة والسفن العثمانية الراسية في القرن الذهبي أمكنتها من السور وأخذ الجنود يطلقون عليه قذائفهم ونبالهم وأخذ فريق منهم يتسلقونه بالسلالم والحبال وغيرها من أدوات التسلق، والتحموا في صراع عنيف مع المدافعين الذين هبوا إلى قذف السلالم في البحر وإطلاق النيران والسهام والقذائف على العثمانيين.

وأصاب هذا الهجوم أهل القسطنطينية بالفزع والرعب، فعلت أصواتهم بالدعاء والضراعة ودقت أجراس الكنائس دقات شديدة متوالية، على أن هذا الخطر قد أثار في الأهلين من جهة أخرى روح المقاومة والكفاح، ولم تتخلف النساء عن الاشتراك في أعمال الدفاع، فأخذن يغلين الزيوت ثم يحملنها إلى الأسوار لتصب على المهاجمين والذين يتسلقون السور منهم خاصة، ولكن ذلك لم يضعف عزيمة المسلمين الذين كانوا يندفعون في الهجوم بغير مبالاة وهم يرددون بكل قوة: الله . . الله.

واستمر الصراع على جانبي السور البحري على هذا النحو من الشدَّة والعنف إلى آخر الحصار، وإذا كان العثمانيون لم يفلحوا في اقتحام المدينة من

هاتين الناحيتين، فإنهم قد شغلوا عددًا كبيرًا من المدافعين الذين كان يمكن استخدامهم لتقوية الدفاع من جانب السور البري.

أما جنود الأناضول اللذين يهاجمون وادي ليكوس، فقد أمرهم السلطان محمد الفاتح بالانسحاب، وكان المدافعون قد بلغوا من التعب والجهد والإعياء أقصى مداه، ولم يكن الفاتح يرمي من هذه الهجمات المتواصلة إلا إرهاق المدافعين وإجهادهم واستنزاف طاقتهم وقواهم قبل أن يضربهم الضربة الأخيرة القاصمة.

واغتبط جستنيان وجنوده بإنسحاب الأتراك وارتفعت صيحات الفرح والنصر من جوانب السور، وقال جستنيان للإمبراطور قسطنطين وقد طفح وجهه بالبشر: «يا صاحب الجلالة اطمئنوا فإن سيوفنا قد ردت العدو»، ولكن الفاتح لم يتركهم يستريحون، فلم يكد يسحب جنوده من السور حتى أطلقت عليهم مدافعه قذائفها القوية المدمرة، وجاء بالقسم الثالث..

القسم الثالث ـ من جنوده وهم الإنكشارية، وكانوا خير الجند تدريبًا وحنكة وبسالة، وقد كان تنفيذ خطة الهجوم هذه المرة أكثر إحكامًا ودقَّة، وكان الشيوخ والعلماء يشجعونهم ويحرضونهم على صدق القتال والجهاد، وكان الصبح قد أضاء وأمكن رؤية كل شيء بسهولة ووضوح.

وقاد الفاتح بنفسه هؤلاء الجنود إلى حافة الخندق، وهناك أمر الرماة والنبالة بأن يمطروا المدافعين بالنبال السهام بحيث لا يقدر أحد منهم أن يطل برأسه من فوق السور، وتحت هذا الوقاء من النبال المنهمرة الكثيفة انطلق الإنكشارية وهجموا على السور كالأسود، وكان هجومًا هائلاً مريعًا اهتزت له جوانب القسطنطينية، وفي مثل لمح البصر أقام كثير منهم السلالم وقفزوا منها إلى أعلى

السور في خفة مدهشة، وكانت تكبيراتهم العالية ودقات الطبول الضخمة وطلقات المدافع الشديدة، كان كل يحدث دويًا يصم الآذان ويلقي الرعب والفزع في نفوس أهل القسطنطينية، وتعالت منهم أصوات الدعوات والضراعة لحماية القسطنطينية ونجاتها من الأتراك، وعلت أصوات أجراس الكنائس وسرى الحماس في نفوس كثير من الناس وصاحوا بأعلى أصواتهم: إلى الأسوار، ساعدوا المدافعين.

في هذه الأثناء كان القائد الجنوي جستنيان، يتنقل من موضع إلى موضع يبعث الحماس والقوة في جنوده، ويضرب لهم المثل بنفسه ويقول لهم: لقد صددنا هجمات العدو من قبل، وسنصدها الآن أيضًا.

وحمى وطيس القتال والمعركة، وبلغ أقصى مداه من العنف والشدة لاسيما عند طوب قبو (باب المدفع) وباب أدرنة، وأصبحت الساعة الحاسمة على الأبواب، فإما أن تنهار المقاومة ويفتح العثمانيون القسطنطينية، وإما أن يردهم البيزنطيون على أعقابهم.

ويذكر المؤرخون[1]: أن هذه المعركة شهدت أروع صور البسالة والاستماتة من الجانبين، فمن ذلك أن جنديًا من الإنكشارية يدعى (حسن طوباتلي) زحف في نحو ثلاثين من رفقائه الفدائيين، وقد أمسك كل منهم السيف بيمينه والترس بيساره، لم يبالوا النبل والقذائف التي انهمرت عليهم كالمطر من فوق السور، والتي صرعت ثمانية عشر منهم، وتسلق حسن طوباتلي وبقية رفاقه السور فأسرع إليهم المدافعين من المدرعين ونشب بينهم صراع عنيف، وقد أظهر

---

(١) المؤرخ البيزنطي فرانتزتس - انظر: «محمد الفاتح» د/ الرشيدي (ص١١٨).

(حسن) بسالة نادرة في القتال وأصيب هذا الجندي الشجاع بقذيفة قوية أوقعته إلى الأرض، ولكنه نهض على ركبتيه وظل يقاتل في حماس وحمية، وتكاثر عليه الأعداء وخرقته الرماح والنبال فخرَّ صريعًا بعد أن أظهر أن الطريق إلى اقتحام المدينة قد تمهدت، وأن الوصول إلي أعلى السور قد أصبح ميسورًا.

وفي هذه اللحظات كان المسلمون أكثر حماسًا فضاعفوا الجهد، وشددوا الهجوم، وكان من أثر ذلك أن أُصيب (جستنيان) القائد الجنوي بجرح غائر عجز عن احتماله فقرر الإنسحاب من ميدان المعركة لتضميد جراحه، وطلب إلى الإمبراطور قسطنطين أن يتولى القيادة مكانه، وفزع قسطنطين من هذه المسئولية التي ألقاها على عاتقه جستنيان، وراح يرجو جستنيان أن يظل مكانه ولا يترك مكانه حتى لا يثبط عزيمة الجند في وقت هم أحوج ما يكونون إلى من يشد أزرهم، وأن مصير المدينة كلها متوقف على موقفه، ولكن (جستنيان) أصرَّ على أن ينقل في الحال إلى سفينته الراسية في الميناء، وقد سأله الإمبراطور قسطنطين: وكيف السبيل إلى الانتقال إلى سفينته، فأجاب جستنيان: سأتبع الطريق التي فتحها الله للعثمانين.

ونقل القائد الجنوي إلى سفينته الراسية وراء السلسلة في القرن الذهبي، ومن هناك نقل إلى جزيرة خيوس حيث مات هناك، وقيل أنه قد مات قبل وصولها إليها، ولقد كانت لوفاته أثرًا حزينًا مؤسفًا على جنوده المدرعين، وحاول قسطنطين النهوض بمعنوياتهم فقال لهم: «إني سأتولى قيادتكم بنفسي، لقد انهزم العثمانيون (الأتراك) في الباب الشمالي، وسنهزمهم أيضًا ونردهم على أعقابهم، فما عليكم إلا أن تثبتوا قليلاً وتنالوا بعده النصر المؤزر، ولأجزلن العطاء والمكافأة بعد ذلك».

وازداد هجوم الإنكشارية عنفًا في هذه المنطقة، وارتقى كثير منهم أنقاض السور وثبتوا أقدامهم فيها، واشترك السلطان محمد الفاتح بنفسه في هذه المرحلة الأخيرة من الصراع، فاجتاز الخندق بحصانه وأخذ يدير القتال بنفسه، ولاشك أنه قد لحظ الارتباك الذي انتاب صفوف المدافعين عقب إنسحاب جستنيان، فانتهز هذه الفرصة وشدد وطأة الهجوم عليهم، ولكي يزيد محمد الفاتح حماس جنده أعلن أنه قد أباح لهم نهب المدينة ثلاثة أيام[١].

ولم يمض وقت طويل على تولي قسطنطين القيادة بعد إنسحاب القائد الجنوي جستنيان ووقوفه عند طوب قبو (باب المدفع) حتى انطلقت من جهة الشمال للسور صيحات عالية مفزعة ما لبثت أن سرت في جميع أنحاء المدينة وهي تدوي وتنبئ بدخول الأتراك المدينة، ولم يصدق قسطنطين هذا إلا عندما التفت شمالاً فوجد الأعلام العثمانية ترفرف على بعض الأبراج القديمة من باب أدرنة.

وكان يقود القوات العثمانية في هذه المنطقة قره جه بك، وقد حاول قبل ذلك اقتحام هذا الباب ففشل، فجمع قواته وشنَّ عليه هجومًا آخر أشد عنفًا وقوة، فزحزح المدافعين عن أماكنهم ووثب جنوده على أنقاض السور المتراكمة إلى جنوب هذا الباب، وتمكَّن أحدهم من قتل قائد الحامية، وبمقتله إنهارت مقاومة المدافعين وولوا هاربين، وتدفقت جموع العثمانيين نحو المدينة.

فلما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية المرفرفة ركض نحو فرسه نحو الشمال ليستخبر عن الأمر، فإذا جموع الأتراك تتدفق إلى المدينة كالسيل، فنزل قسطنطين عن حصانه وخلع ملابسه الإمبراطورية وسل سيفه وأخذ يضرب به ذات اليمين وذات الشمال حتى كلَّت يده وأصابه أحد الجنود الأتراك بضربة

---

(١) «تاج التواريخ» سعد الدين.

سيف قاتلة فخر صريعًا، وصاح صائح بأن الإمبراطور قد قتل، فزاد ذلك في فزع الناس ورعبهم، ولم يقف شيء بعد ذلك في وجه الأتراك لدخول المدينة، فقد تفتحت لهم جميع الأبواب والمنافذ بعد أن فرَّ حماتها وذهبوا يلتمسون النجاة لأنفسهم، واشتد الهرج والمرج في المدينة، واختلط الحابل بالنابل وتزاحم الناس يدفع بعضهم بعضًا كل يطلب النجاة لنفسه ولا يدري أين يجدها[1].

ومن جانب البحر فقد أخذ العثمانيون من فوق سفنهم الراسية في بحر مرمرة والقرن الذهبي يناجزون المدافعين، وظلو على ذلك إلى أن رفعت الأعلام العثمانية فوق الأبراج القائمة على السور البري، ورآها المدافعون فخارت قواهم وإنهارت عزائمهم، فاستسلم البعض وفر البعض، ولم يجد المهاجمون العثمانيون اللذين ازدادوا حماسًا وحمية عند رؤيتهم الأعلام العثمانية المرفرة أي صعوبة بعد ذلك في اقتحام المدينة.

الثاني والعشرون - مروءة المنتصر

وقف السلطان محمد الفاتح على صهوة جواده (جامبولات) ينظر إلى جنوده وهم يدخلون المدينة من كل صوب، فقد دخلو مدينة القسطنطينية الخالدة، ورفعوا أعلام الإسلام إيذانًا بالنصر والفتح، وكان يمسك بلجام فرس الفاتح حارسه (قللي يوسف)، وأقبل كبار رجال الفاتح وقد علت وجوههم فرحة النصر، يهنئونه بالنصر والفتح وكل منهم يقول له: لقد بارك الله في جهادك يا سلطاني، فكان محمد الفاتح يجيب قائلاً: «حمدًا لله، ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر»[2].

---

(١) «محمد الفاتح» الرشيدي (ص١٢٠).

(٢) المصدر السابق (ص١٢١).

وقد دخل العثمـانيون القسطنطينية عنوة وبالقوة بعد حـرب ضروس وقتال مرير، بل إن كثـيرًا من الأهالي والجنود تركوا مراكز دفـاعهم في الأسوار، ثم صعدوا إلى أسطح المنازل وأخذوا يقذفون منها الأحجار الضخمة وقطع الحديد المحمية والأخـشاب المشتعلة، ولم يجد المسلمون بدًا من مقـاتلتهم، وأصبحت المدينة بذلك غنيـمة للفاتحين كـما تقضي بذلـك قوانين الحرب في ذلك العـهد وكما يقـضي الإسلام، وأفاء الله عليهم مـغانم كثيرة وأسـرى وسبيًا كـثيرًا من الرجال والنساء.

وعند الظهيرة توجه السلطان محمد الفاتح إلى القسطنطينية على ظهر جواده يحف به كبار رجـال دولته وحرسه، وقد أعجـبته المدينة بآثارها الرائقة ومبـانيها الضخمة، وكان ألوف من العثمانيين يحيطون بهذا المركب السلطاني ويهتفون بين حين وحين: ما شاء الله، ما شاء الله، ليحيى سلطاننا . . ليحيى سلطاننا.

ولما بلغ الفاتح منتـصف المدينة توقف عن السير وقـال لمن حوله من الجند: «أيها الغزاة المجـاهدون، حمدًا لله وشكرًا، لقد أصـبحتم فاتحي القـسطنطينية»، وقرأ عليـهم الحديث النبـوي الشريف: «**لتـفـتـحن القـسطنطينيـة، فلنعم الأمـير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**».

وبفتح القسطنطينية سقطت الإمبراطورية البيزنطية بعد أحد عشر قرنًا ونصف تقريبًا، ومن المفارقات الملفتة للنظر: أن القسطنطينية بناها الإمبراطور قسطنطين الكبير وافتتحها رسميًا في الحادي عشر من شهر مايو عام ٣٣٠ ميلادية[١]، وأنها سقطت في عهد إمبراطور يحمل الاسم نفسه، وهو قسطنطين الحادي عشر، وأن

---

(١) عاشق باشا «زاده تاريخي» (ص١٤١، ص١٤٢).

محمدًا الفاتح دخلها في الثلاثين من مايوم عام ١٤٥٣، وهو الشهر نفسه الذي افتتحت فيه، وبعد مرور ١١٢٢عام.

وهنأ محمد الفاتح جنوده بالنصر ونهاهم عن القتل والنهب والسلب، وأن يكونوا أهلاً للشرف الذي حباهم به الرسول ﷺ.

وترجَّل الفاتح عن فرسه واستقبل القبلة وسجد على الأرض وحثا التراب على رأسه شكرًا لله على ما منحه من توفيق ونصر، ثم استأنف سيره إلى كنيسة أيا صوفيا، ولما اقترب منها وصلت إلى مسامعه أصوات خافته حزينة هي أصوات الصلوات والدعوات التي كانت تجري فيها، وقصد الفاتح إلى أحد أبواب الكنيسة، وكان بابًا منيعًا حصينًا فوجده مغلقًا، فلم علم الراهب بمقدمه أمر بفتح الباب على مصراعيه، وانتاب الناس خوف عظيم وفزع لحضور السلطان وتوجسوا شرًا، وانقطعوا عما كانوا فيه من الصلاة، وساد بينهم لجب ولغط، فما كان من الفاتح إلا أن طلب من الراهب أن تستمر الصلاة كما كانت من قبل، وأن يبقى كل إنسان في مكانه دون أن يجزع، وتمت الصلاة في هدوء وأمان، وسجد الفاتح مرة أخرى يشكر الله ويحمده ثم طلب إلى الراهب أن يأمر المصلين بالعودة إلى منازلهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وأن يعود كل إنسان إلى ما كان يمارسه من قبل من عمل وحرفة، ونزل هذا الكلام بردًا وسلامًا على هؤلاء الناس الذي كانوا يتوقعون أن ينزل بهم أشد أنواع البطش والتنكيل، وشاعت في نفوسهم الراحة والطمأنينة، وبعث الفاتح إلى مختلف أرجاء المدينة نفرًا من رجاله لتأمين الناس وليعودوا إلى حياتهم العادية.

وفيما كان الفاتح يطوف بأرجاء كنيسة أياصوفيا الكبيرة الفسيحة إذا به يسمع قرعًا ونقرًا من ورائه، والتفت فإذا جندي من جنوده يضرب بآلة وفي يده عمودًا

من المرمر كانت معلقة عليه إحدى الصور المقدسة، واقترب منه الفاتح وقال له غاضبًا: «ما عملك هذا؟» فأجاب الجندي الأُمي بكل بساطة: ألست مسلمًا؟ أُريد محو آثار الكفار!، فقال له الفاتح: «ليس من الحق تخريب المعبد»، وخطف منه الآلة وضربه بها على رأسه.

وكان نفر من الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة خوفًا من القتل، فلما سمعوا بما فعله الفاتح وحسن رعايته للنصارى خرجوا من أماكنهم وأعلنوا إسلامهم، وعرف أحدهم وكان أكبرهم سنًا باسم بابا محمد[١].

وعلم محمد الفاتح بمقتل قسطنطين فدفنه في احتفال يليق بمكانته ومنزلته[٢]، وسأل محمد الفاتح عن جستنيان، فعلم أنه أصيب ويعالج في سفينته الراسية بميناء القرن الذهبي، فأرسل الفاتح من فوره بعض رجاله في طوب قبو للبحث عن السفينة التي يرقد فيها جستنيان وإنزاله من البر وإحضار أحذق الأطباء لتطبيبه وتضميد جراحه، وقد كان السلطان الفاتح جنديًا عظيم النفس يكرم البطولة، ولو كانت في ألد أعدائه، وكان قد أظهر إعجابه بجستنيان عندما كان يدافع عن السور بحذق ومهارة وبسالة.

وسلك السلطان محمد الفاتح نحو أهل القسطنطينية سياسة التسامح والرأفة، وأمر جنوده بحسن معاملة من في أيديهم من الأسرى والرفق بهم، وقد بذل الفاتح كل ما في وسعه لتخفيف آلامهم وفك أسرهم، وفدى عددًا من كبار الأسرى بماله الخاص[٣].

---

(١) أحمد مختار «فتح جليل قسطنطينية».

(٢) الرشيدي عن الأب دي كبيه السيوعي «كشف المكتوم».

(٣) «تاريخ سلطان محمد خان ثاني» قريتودولوس.

ويقول المؤرخون: إن السلطان محمد الفاتح قد حنا على أهل القسطنطينية حُنُوَّ الوالد الشفيق العطوف على ولده، وكان كثير من السكان قد فروا من المدينة عندما دخلها العثمانيون خوفًا من القتل، فأصدر الفاتح بيانًا عامًا دعا فيه هؤلاء الفارين إلى العودة إلى مدينتهم كلٌ إلى منزله، وأمنهم على حياتهم وأموالهم وأن يعود أهل التجارة والحرف إلى أسواقهم، ومزاولة أعمالهم ومهنهم، ووعدهم بحرية العبادة وممارسة شعائر دينهم.

الثالث والعشرون - معاملة الفاتح المنتصر للأعداء والأصدقاء

كان السلطان محمد الفاتح يعلم أن الروم قوم شديدوا التمسك بالدين، فرأى أن خير ما يجمع شملهم ويشجعهم على العودة والاطمئنان إلى حكمه، هو أن يظهر العناية بالناحية الدينية، وكانت البطريركية إذ ذاك شاغرة، فعمل على تنصيب بطريرك رومي جديد بنفس المراسيم الضخمة التي كانت تتبع في عهد الأباطرة الأول، واجتمع الأساقفة وانتخبوا جناديوس بطريكًا لهم، وقد كان من أقوى المعارضين لإتحاد الكنيستين وأشدهم عداءً له، وبعد انتخابه ذهب في موكب حاف من الأساقفة إلى القصر الذي كان فيه الفاتح، فاحتفى به أعظم احتفاء وبالغ في تكريمه والترحيب به، وتناول معه الطعام على مائدته وتحادث معه حديثًا طويلاً، ثم قدَّم إليه بعد ذلك عصا البطريركية وقال له: «إنَّك البطريرك وليحفظك الله، واعتمد دائمًا على صداقتي ومودتي وتمتع بكل ما كان يتمتع به سلفك من الحقوق والامتيازات».

ولما همَّ البطريرك بالانصراف نهض الفاتح ورافقه إلى باب القصر وأعانه على ركوب الجواد المطهم الذي أُعد له، وأمر وزراءه وكبار رجال دولته أن يصحبوه إلى مقرِّه الذي هُيئ له، وقد تأثر البطريرك لما لقيه من السلطان محمد

الفاتح من بالغ الحفاوة والتجلّة وشعر بشيء من الخجل، فقال للسلطان: إن الأباطرة النصارى لم يفعلوا قط مثل هذا لمن سبقه من البطاركة.

ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثرًا ودهشة من بطريركهم، فقد كانوا يحسبونه فاتحًا بربريًا سفاكًا غادرًا لا يرعى للدين حُرمة ولا يفهم للإنسانية والتسامح معنى، ولكنهم وجدوا فيه من السماحة والدماثة والأريحية ما لم يروا مثلها من قبل، فلم يسعهم إلا أن رفعوا أيدهم إلى السماء يسألون الله أن يبارك لهم في السلطان الجديد(١).

وأصدر الفاتح فرمانًا بعد ذلك للبطريرك أمنه فيه على شخصه، وجعله في رتبة الوزراء وعهد إليه بالنظر في أمور الروم من الناحيتين الدينية والمدنية كالزواج والطلاق والميراث، وأصبح البطريرك بذلك زعيمًا دينيًا وسياسيًا لشعبه، وباستيلاء الفاتح على القسطنطينية قضى على ما كان فيها من المنازعات والمشاحنات التي طالما أثارت الفتن وأراقت الدماء، وحرَّم السلطان الفاتح اضطهاد النصارى تحريمًا قاطعًا، ولم يميز في تسامحه ومعاملته بين أحد منهم على إختلاف عقائدهم ومذاهبهم بل جعلهم كلهم سواء وأظلهم جميعًا بعدله ورعايته، وقد طلب إليه بعض المتعصبين الجهلة قتل الروم وإبادتهم إذا لم يدخلوا في الإسلام، فأبى ذلك عليهم وقال: إنه إن فعل ذلك يخالف تعاليم القرآن(٢).

ولم تمض بضعة أيام على فتح القسطنطينية حتى ساد الأمن والسكينة ربوع المدينة واستأنف الناس حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام.

---

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (١٢٦).
(٢) المصدر السابق.

مع خليل باشا ونوتاراس

خليل باشا كان وزيرًا لمحمد الفاتح، ولكن كان هناك إجماعٌ يكاد يكون تامًا بين المؤرخين الشرقيين والغربيين على أن خليل باشا كان يمالئ الروم على المسلمين . . أما (نوتاراس) فهو الرجل الثالث في قيادة جيش الروم بعد قسطنطين وجستنيان الجنوي.

وكان الدوق (نوتاراس) كما رأينا من قبل قد قابل السلطان الفاتح ولقى منه كل حفاوة ورعاية، وقد عاتبه السلطان على عدم تسليمه المدينة بعد أن أرسل إليها الإنذار الأخير، ومن قبل أن يصيبها الخراب وتراق الدماء، وأجاب نورتارس: بأن استمرار المقاومة يرجع إلى الجنود الأجانب وإلى الرسائل التي كان يبعثها أحد وزراء السلطان إلى قسطنطين يحثه فيها على مواصلة المقاومة وعدم الاستسلام، ويطمعه في رفع الحصار (ربما يقصد خليل باشا الذي كان حاضرًا)، وقد اهتم قسطنطين بهذه الرسائل وعمل بها.

وما إن سمع خليل باشا هذا حتى ظهر عليه الارتباك والخوف، وكان واقفًا بجانب السلطان فصاح: كلا يا سلطاني، من المستحيل أن يوجد في معيتكم من يرتكب مثل هذا الخزي والعار، إنَّ هذا الكافر يفتري كذبًا فلا تسمحوا له بالكلام واقطعوا رأسه، فنظر الفاتح إلى خليل باشا وعلى فمه ابتسامه ساخرة، وقال له: «فلماذا ترتبك إذن يا لالا؟ ألا تجيب على هذه التهم الموجه إليك؟».

أمَّا نوتاراس فقد صفح عنه السلطان وأكرمه ووهب له ولأولاده مالاً كثيرًا، وذهب في اليوم التالي إلى بيته لعيادة زوجته المريضة فواساها وأسبغ عليها من

عطفه ورعايته، ولكن نوتاراس ومن معه من نبلاء الروم قد أغرتهم هذه المعاملة السمحة الكريمة من الفاتح وأطمعتهم، فأخذوا يأتمرون لإخراج المسلمين من القسطنطينية، وبعثوا رُسلاً إلي إيطاليا يدعون إلى حملة صليبية ضدهم، فأمر السلطان الفاتح باعتقالهم وقتلهم.

واستعرض السلطان الفاتح جنوده بعد فتح القسطنطينية استعراضًا عسكريًا في أدق ميدان، شبيهًا بالاستعراضات العسكرية التي نراها اليوم، ثم أقيمت بين الجنود مسابقة في الرماية بمختلف الأسلحة، فأقبلوا عليها بنفوس مرحة نشيطة. وبعد انتهاء المسابقة أقام الفاتح مأدبة حافلة لجنوده استمرت ثلاثة أيام أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السلطان الفاتح يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائر: «سيد القوم خادمهم» ووزع عليهم العطايا والمنح.

ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين فقال: يا جنود الإسلام، اعلموا أن النبي ﷺ قال في شأنكم: «**لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**». ونسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يوفقنا ويغفر لنا جميعًا، ألا لا تسرفوا ما أصبتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا في البر والخير لأهل هذه المدينة، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه، ثم التفت إلى الفاتح وقال له: «يا سلطاني، لقد أصبحت قرة عين آل عثمان، فكن على الدوام مجاهدًا في سبيل الله، ثم صاح مكبرًا بالله في صوت جهور جليد[1].

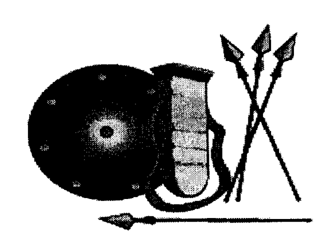
هكذا تم فتح القسطنطينية للسلطان محمد الفاتح، وخرت هذه المدينة القاسية الحصينة أمام عبقرية محمد الفاتح العسكرية، والتي عجز عن فتحها كثير

---

(١) أحمد مختار «فتح جليل قسطنطينية».

من العتاة والغزاة الفاتحين في محاولات بلغت العشرين محاولة، فشلت جميعها تحت أسوار القسطنطينية الشامخة وقلاعها المنيعة، وردتهم على أعقابهم، ولكنها أمام محمد الفاتح خرت صاغرة مطيعة ترفع اسم الإسلام.

وقرر السلطان محمد الفاتح أن يتخذ من القسطنطينية عاصمة لدولته، بل العاصمة الإسلامية الكبرى، فاستبدل اسمها باسم استانبول، وهي كلمة تركية معناها: (دار الإسلام)، وعرفت المدينة منذ ذلك الوقت باسم استانبول أو أسلامبول أو الأستانة[1].



(١) «تاريخ سلاطين آل عثمان» ـ أجمد القرماني في (ص٢٦، ص٢٧).

الفاتح وتسامح الإسلام

قام الفاتح بتوجيه رسالة الإسلام السمحة عسى أن يفهمها أصحاب الفكر الصليبي العنصري، وتمثلت رسالته في إجراءات عظيمة نذكر منها:

١ ـ إطلاق سراح الأسرى فورًا نظير مقابل مادي قليل يسدد على أقساط طويلة المدى.

٢ ـ إسكان الأسرى الذين كانوا من نصيبه في المغنانم في المنازل الواقعة على ساحل الخلية.

٣ ـ عندما أُبيحت القسطنطينية للجنود ثلاثة أيام عقب الفتح، كان هذا الإذن مقتصرًا على الأشياء المعنوية، فلم تغتصب امرأة، ولم يمس شيخ عجوز ولا طفل ولا راهب بأذى، ولم تهدم كنيسة ولا صومعة ولا دير ولا بيعة، مع أن المدينة أخذت بالحرب ورفضت التسليم.

٤ ـ كان من حق الفاتح قانونًا ـ مادامت المدينة قد أخذت عنوة وبالقوة ـ: أن يكون هو نيابة عن الجيش الفاتح مالكًا لكل ما في المدينة وكان، من حقه أيضًا تحويل نصف الكنائس والبيع وعلى مدى زمني طويل إلى جوامع ومساجد، وترك النصف الآخر لشعب المدينة على ما هو عليه، وفي وقفيات السلطان الفاتح بنود كثيرة على إبقائه (أديرة جوكاليجا ـ وآيا ـ وليبس ـ وكيراماتوا ـ والكس) في يد البيزنطيين[(١)].

٥ ـ اعترف لليهود بملكيتهم لبيعهم كاملة، وأنعم بالعطايا على الحاخام (موسى كابسالي).

---

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» د/ محمد حرب (ص٧٥).

٦ - عين في ١٤٦١م للجماعات الأرمينية بطريقًا يُدعى (يواكيم) ليشرف على مصالح الأرمن، ويوحِّد صفوفهم.

٧ - بدأت أعمال تعمير مدينة القسطنطينية إبتداءًا من ٢ يونيه ١٤٥٣م، وكان الفتح يوم ٢٩ مايوم من العام نفسه، وأمر بنقل جماعات كثيرة من مختلف أنحاء الدولة إلى القسطنطينية للإسهام في إعادة إنعاشها.

٨ - أعاد الفاتح للأرثوذكس كرامتهم التي أهدرها اللاتين الكاثوليك بأن أعطاهم حق إنتخاب رئيس لهم يمثلهم، ويشرف على شؤونهم، وأصبح سكولاريوس (جناديوس) أول بطريق لهم بعد الفتح العثماني للقسطنطينية، وبذلك أنقذ الفاتح إيمان الأُمة التي فتح ديارها، وأحيا الأرثوذكسية بعد أن أخذت تخفت (لاحظ أن هذا التصرف من الفاتح تسبب في تكتل أوربا الكاثوليكية ضده).

٩ - جعل الفاتح مسائل الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق والميراث وأمور الوفاة الخاصة بأهل المدينة المفتوحة من حق الجماعات الدينية المختصة.

١٠ - كانت مسؤليات العاصمة كبيرة، ولا يمكن أن يقوم بها شعب قليل العدد بقى فيها بعد سقوطها بأيدي المسلمين، وكان كثير من الجماعات الإسلامية تدرك قيمة موقعها التجاري للانتقال إليها والاستفادة من ذلك، بالإضافة إلى الفرص العديدة التي تسنح من وجودها بالقرب من الحكومة المركزية؛ لذلك استمرت هذه الهجرات الإسلامية إلى المدينة حتى أضحت عاصمة إسلامية كاملة، ومع ذلك لم يهمل السلطان الفاتح أمر سكانها الأصليين، فشجع من هاجر منهم على العودة والاستمرار في مزاولة نشاطهم، وبذلك زوَّد دولته بفائدة سياسية وثقافية قوية[1].

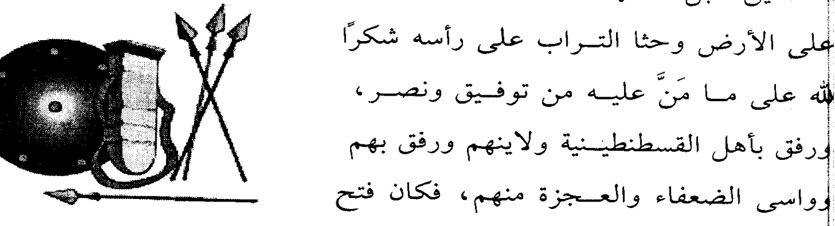
---

(١) «العثمانيون» د/ محمد سهيل طقوش (ص٩٦).

١١ - عمل السلطان الفاتح على تشجيع بقاء الجالية الجنوية التي كان لها دورٌ كبيرٌ في تنمية التجارة، فأبقى ما كان للجنويين من امتيازات وزاد عليها، فكانوا بذلك أداة لنمو ثروة المدينة من جهة، وواسطة للاتصال بالدول الأوربية من جهة أخرى.

١٢ - نهج السلطان العثماني سياسة التسامح الديني حتى يتسنى له الاستفادة من العناصر المسيحية التي أضحت تكوِّن رعية السلطان المسؤولة عن استثمار البلاد، ولهذا أبقى المسؤوليات الدينية للأرثوذكس في يد الكنيسة وعلى رأسها بطريك الروم.

وعلى كل الأحوال، فإن هذا النصر على عِظَمِهِ وبهائه وفخامته، لم يبطر ولم يُزه ذلك السلطان الشاب (محمد الفاتح) الذي لم يكن قد جاوز الرابعة والعشرين من عمره حينذاك، فلم يدخل المدينة دخول الملوك العتاة الجبابرة المفسدين، بل دخلها خاشعًا متخشعًا، وسجد على الأرض وحثا التراب على رأسه شكرًا لله على ما مَنَّ عليه من توفيق ونصر، ورفق بأهل القسطنطينية ولاينهم ورفق بهم وواسى الضعفاء والعجزة منهم، فكان فتح القسطنطينية مفخرة من مفاخر الإسلام التي يزهو بها التاريخ ومجدًا من أمجاده الخالدة الباقية على الدهر .. وبعد ذلك الفتح المبين؛ أطلقت على السلطان محمد الثاني كنية: «أبو الفتح».



نتائج فتح القسطنطينية

اعتبر المؤرخون أن فتح القسطنطينية حدًا فاصلاً بين تاريخ العصور الوسطى وتاريخ العصور الحديثة، وأحدث هذا الفتح العظيم دويًا هائلاً في الشرق والغرب، ومن نتائجه ما يلي:

١ - أُعتبر فتح القسطنطينية أحد أكبر وقائع التاريخ العالمي.

٢ - في القاهرة أُقيمت الزينات وعم الفرح أرجاء البلاد، وأرسل السلطان المملوكي رسالة إلى السلطان محمد الفاتح يهنئه بالفتح، وقد وصف المؤرخ المصري المعاصر الشهير بابن تغري بردي شعور الناس في مصر وابتهاجهم بهذا الفتح التاريخي العظيم والنصر الإسلامي المبارك بعد أن أرسل السلطان محمد الفاتح رسولاً في أكتوبر ١٤٥٣م يبلغ سلطان مصر (وكان اسمه أينال) وحمل معه هدايا وأسيران من عظماء الروم، قال أبو المحاسن ابن تغري[١]:

«قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم، وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء استنبول، وطلع بهما إلى السلطان (سلطان مصر أينال)، وهما من أهل القسطنطينية وهي الكنيسة العظمى باسطنبول، فسُرَّ السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم، ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أيامًا، ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلى القلعة في يوم الاثنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن وامعنوا في ذلك إلى الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوض السلطاني من قلعة الجبل».

(١) «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة».

ويقول ابن تغري بردي في كتاب آخـر: «ثم طلع قاصد متملك بلاد الروم، ورفقته إلى القلعة من غير أن يحضر القضاء، وتمثلوا بين يدي السلطان وقدموا ما معهم من الهـدية التي أرسل بها مرسلهم، وكانت تسـعة أقفاص سمـور وتسعة مخمل ذهـب وعدد كبير من الهـدايا ومماليك نحوًا من ثلاثين، فقـبلها السلطان ورحَّب به، ثم أنزل إلى محل إقامته ومعه رفقته وهـم يتفرجون في الزينة وكانت عظيمـة، واستمرت أيامًـا وتغالى العوام في شأنهـا مع استمرار دقِّ البـشائر في صباح كل يوم أيامًا.

٣ ـ بعث السلطان مـحـمد الفـاتح برسـائل الفتح والـنصر إلى شـاه إيران وشريف مكة وأمـير القرمان، كمـا بعث إلى الأمراء المسيحـيين المجاورين له في المورة والأفلاق والمجـر والبوسنة والصـرب والبانيـا وإلى جميع أطراف ممـلكته، وتلقى من بعضهم رسائل تهنئة.

٤ ـ كان تأثير فتح القـسطنطينية على الغرب تأثير كبيرًا وهائلاً في مـستقبل أوربا كلها بحيث اهتـزت عروش ملوك أوربا وانتابت ملوكهم مـوجة من الخوف والهلع والشعور بمرارة الهزيمة. فقد كانت القـسطنطينية أو الدولة البيزنطية حصنًا منيعًـا يحمي أوربا منذ مئات السنين أو منذ أن قـامت قبل ألف عام، فقـد ظهر خطر المسلمين وتهديدهم لهم، واعتقدوا أن انتـصار السلطان محمد الفاتح بداية لتوغل العـثمانيين في أوربا، فراحوا يتتـبعون خطـواته وحركاته بقلق واهتـمام شديد، وجـعلوا يستنفرون شـعوبهم ضد مـحمد الفـاتح، وأدركوا أن المسلمين بعقـيدتهم الإسلامـية القوية قـد شقوا طريقــهم على رؤوس البيزنطيين وعـبروا البلقان إلى أبـواب المجر، وطالما أن بيزنطة قـد خضعت للمـسلمين فقـد أصبح الطريق أمامهم مفـتوحًا للوصول إلى إيطاليا وألمانيا، وقـد انهارت آمالهم في رد المسلمين إلى داخل أسيا.

أخلاقيات الفاتح المسلم

ظهرت أخلاقيات المسلم وعقيدته السمحاء في شخص السلطان محمد الفاتح، عندما قام بفتح القسطنطينية، فما أن تم له الفتح العظيم حتى خاف الشعب البيزنطي وأسرع يتجه نحو كنيسة أياصوفيا، وعندما دخل الفاتح المدينة أمر بإحراق جثث القتلى تفاديًا للأمراض، وسار على ظهر جواده إلى الكنيسة حيث تجمَّع الشعب البيزنطي ورهبانه، وما أن علموا بوصول السلطان الفاتح حتى خرُّوا سجَّدًا راكعين بين أنين وبكاءٍ وعويل، ولما وصل الفاتح ترجل من على ظهر حصانه، وصلى صلاة الشكر لله - عزَّ وجلَّ - على توفيقه له بالفتح، ثم سار يقصد شعب بيزنطة ورهبانه، ولما وجدهم على هذه الحالة من السجود إنزعج وتوجه إلى رهبانهم قائلا: «قفوا، استقيموا، فأنا السلطان محمد الفاتح، أقول لكم ولجميع إخوانكم ولجميع الموجودين هنا إنكم منذ اليوم في أمان في حياتكم وحرياتكم».

وقد ساعد هذا التصرف المتسامحم على عودة النصارى الذي فروا من المدينة، وأمر الفاتح قادته وجنوده بعدم التعرض للشعب بأذى، ثم طلب من الناس العودة إلى ديارهم بسلام، وحوَّل أياصوفيا إلى مسجد على أن تصلى فيه أول جمعة بعد الفتح، كان الفتح يوم ثلاثاء، وكانت أيا صوفيا أكبر كنيسة في العالم، وأقدم مبنى في أوربا كلها[1].

ويتحدث التاريخ عن أن سلوك محمد الفاتح عندما فتح القسطنطينية ودخلها منتصرًا ظافرًا، كان سلوكًا مختلفًا تمامًا، فقد كان الفاتح يستطيع حسب قوانين

---

(١) «العثمانيون والحشارة» د/ محمد حرب (ص٧٤).

الحرب في هذا الوقت أن ينفي شعب المدينة التي سقطت راكعة تحت قدميه، أو استملاك واستعباد هذا الشعب، لكن الفاتح قام بما لم يستوعبه فكر هؤلاء الغربيين الذين عاصروه من تسامح ورحمة، فقد قام بالآتي:

١ ـ إطلاق سراح الأسرى نظير مبلغ مادي قليل، وإسكانهم في المنازل الواقعة علي ساحل الخليج.

٢ ـ لم تكن إباحته مدينة القسطنطينية لجنوده ثلاثة أيام عقب الفتح إباحة بربرية ظالمة، كما يحدث في بعض المعارك أنذاك، فلم تغتصب امرأة ولم يذل عجوز مسن ولا طفل ولا راهب، ولم تهدم كنيسة ولا دير، مع أن المدينة رفضت التسليم، وأبقى الأديرة وبعض الملكيات الهامة في أيدي أصحابها البيزنطيين.

٣ ـ اعترف لليهود بملكيتهم لبيعهم كاملة، وأنعم بالعطايا على الحاخام موسى كامسالي.

٤ ـ عَيَّن في ١٤٦١م بطريقًا للجماعات الأرمينية يدعى (يواكيم) ليقوم بالإشراف على مصالح الأرمن ويوحد صفوفهم.

٥ ـ استعجل في إعادة إعمار المدينة، فقد كان فتحها في ٢٩ مايو، وبدء تعميرها في ٢ يونية ١٤٥٣م، وأمر بنقل جماعات كثيرة من مختلف أنحاء الدولة إلى القسطنطينية للإسهام في إعادة إنعاشها.

٦ ـ أعاد محمد الفاتح للأرثوذكس كرامتهم التي نال فيها اللاتين الكاثوليك بأن أعطاهم حق انتخاب رئيس لهم يمثلهم ويشرف على شؤونهم، وأصبح يكولاديوس (جناديوس) أول بطريق لهم بعد الفتح العثماني

للقسطنطينية، وبذلك أنقذ الفاتح إيمان الأُمة التي فتح ديارها، وأحيا الأرثوذكسية بعد أن أخذت تخفت.

٧ ـ أعطى محمد الفاتح للجماعات الدينية المختصة في المدينة حق التصرف في مسائل الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق والميرث وأمور الوفاة. وكان هذا الحق مهضومًا في أوربا في ذلك الوقت[١].

٨ ـ أصبحت طرق التجارة التي كانت تسيطر عليها السفن الغربية في أيدي العثمانيين، تفرض عليها الضرائب في وقت السلم، كما هي تحت أيديهم في وقت الحرب.

٩ ـ فزعت البابوية في روما من تحول الملايين من سكان جنوبي شرقي أوربا إلى الإسلام، وكتب البابا نيقولا الخامس إلى جميع الحكام الأوربيين طالبًا منهم طرح الخلافات وتوحيد الجهود ضد العثمانيين والعمل على تشكيل حلف صليبي آخر، كما حاول خليفته البابا بيوس الثاني تجديد الهمم، وقد حالت نزاعات الأمراء والملوك دون تحقيق هذا الحلم البابوي في روما.

١٠ ـ يعتبر فتح القسطنطينية عامل دعم للهيبة العثمانية من خلال السيطرة التي حققتها على العالمين الإسلامي والأوربي، فقد فتحت القسطنطينية بعد عدة محاولات لفتحها وحصارها منذ العهود الإسلامية القديمة، فكان النجاح التام في فتحها بمثابة هدم للجدار، والحاجز التاريخي الذي لم يستطع فيه المسلمون فتحها من قبل، وإنهارالجدار الجغرافي في الأوربي، مما ساعد على زحف المسلمين إلى أوربا فكان له مردودٌ إيجابيٌّ هائلٌ.

---

(١) «العثمانيون» د/ محمد حرب.

١١ ـ يعتبر فتح القسطنطينية حدًا فاصلاً بين القرون الوسطى والقرون الحديثة.

ولعل أكثر نتائج هذا الفتح هو يقين الفاتحين بأسباب نصرهم، وهي الإيمان بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وتمثل هذا في قول محمد الفاتح معددًا ومفتخرًا بقيم الإسلام، فيقول في شعره:

نيَّتي: امتثالي لأمر الله، وجاهدوا في سبيل الله.

وحماسي: بذل الجهد لخدمة ديني، دين الله.

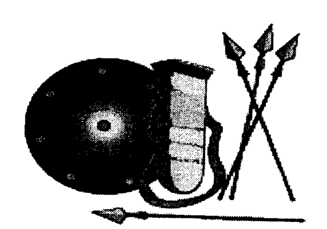
وعزمي: أن أقهر أهل الكفر جميعًا بجنودي جند الله.

وتفكيري: منصب على الفتح، على النصر، على الفوز بلطف الله.

وجهادي: بالنفس والمال، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله.

وأشواقي: الغزو مئات الآلاف من المرَّات لوجه الله.

ورجائي: في نصر الله، وسمو الدولة على أعداء الله[1].



(١) انظر: «العثمانيون والحضارة» (ص٢٧٩).

فتح بلاد الصرب والبوسنة والهرسك

هذه البلاد المسماه بالصرب والبوسنة والهرسك: تعد إحدى بلاد البلقان أو إحدى جزر البلقان، ولكن ما هي البلقان؟ وماذا تعنى هذه الكلمة؟ إن اصطلاح البلقان أو (بلقان)، يرجع إلى أصل لغوي تركي يعني كلمة (الجبل)، ومنذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي، شملت هذه العبارة الجزر الثلاثة الواقعة في شرقي أوربا، والمتداخلة مع البر الأوربي الرئيسي، وهي تطلق اليوم على بلاد: اليونان، ألبانيا، يوغسلافيا، بلغاريا، ورومانيا، هذه الأقطار التي تشترك في وحدة جغرافية وتراث سياسي امتد طيلة خمسة قرون من الحكم العثماني.

فبعد أن حقق الله النصر على يد السلطان محمد الفاتح بفتحة القسطنطينية، اتجه إلى التعمير والبناء فيها، ثم عاد إلى أدرنة حيث استُقبِلَ استقبال الأبطال الظافرين المنتصرين، وكان هناك بعض الوقت ثم ذهب إلى بروسه للاستجمام واستجماع القوة قبل أن يستأنف حروبه وفتوحاته.

أصبح فتح القسطنطينية حدثًا عظيمًا يؤكد أن الطريق أصبح مفتوحًا أمام العثمانيين لكي يبسطوا سيادتهم على كثير من أجزاء البلقان، وقد كان هذا الفتح هو الذي مهد الطريق أمام الفاتح لكي يفتح البلاد الصربية واليونان والقرم والجزر الرئيسية في الأرخبيل، وقد تم ذل للفاتح في وقت طويل بلغ بضعة وعشرين عامًا.

وقد استهل محمد الفاتح فتوحاته في أوربا بصربية، والتي أصبحت تقع بين المطرقة والسندان، أو بمعني أصح أصبحت تقع بين الدولة العثمانية في الشرق، وبين الدولة المجرية الكاثوليكية من الغرب.

كان أمير صربيا في ذلك الوقت هو (جورج برنكوفيتش)، وكان الأتراك يسمونه (يوركي)، ولم يكن جورج برنكو هذا مخلصًا، فبالرغم أنه كان يلوذ بالعثمانيين إذا جاءه الخطر من المجر، وكان يدفع لهم الجزية، إلا أنه كان يخادعهم ويتربص بهم حتى أن السلطان محمد الفاتح قال عنه يومًا: «كان يظهر الصداقة ويبطن العداوة».

ومما يثبت ذلك أن بعض الدول الأوربية أرادت أن تتحالف ضد محمد الفاتح الذي عظم خطره على أوربا بعد فتح القسطنطينية، فأرسلت إلى (يوركي) هذا ملك الصرب، فبادر بالموافقة على الفور وأيد هذا الحلف وإنضم إليه، ولما علم محمد الفاتح بذلك من خلال عيونه المنتشرة في كل مكان، شعر بخطورة يوركي وصربيا، فقرر أن يبادر بالعمل ويعمل ضدهم، ويغزو صربيا قبل أن تتجمع قوات هذا الحلف داخل صربيا وتنطلق لمهاجمته.

زحف السلطان محمد الفاتح نحو صربيا، فلما علم جورج برنكوفيتش (يوركي) بزحف السلطان الفاتح نحوه أمر الناس أن يلجأوا إلى الأماكن الحصينة، وفر هو إلى المجر بعد أن وعدهم بأنه سيأتيهم بالمدد والقوة من هناك[1].

وانطلق الفاتح حتى وصل إلى مدينة صوفيا، وفيها ترك معظم جيشه ليكون ردءًا له، وسار ببقية الجيش ثم قسَّمه إلى كتيبتين اتجهت إحداهما إلى أوستراوز واحتلتها واتجهت الأخرى إلى سمندرة المحصنة، فصعب عليها فتحها لقسوة الشتاء، فعاد السلطان محمد الفاتح إلى أدرنة بعد أن ترك قائده (فيروز بك) في

---

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي.

عدد من الجند بمدينة كرسوفاز على نهر مورافا، ولكنه لم يقو على صد الجيش الذي جاء به هونياد وبرنكوفيتش، فتمكنا منه وأوقعا به الهزيمة ووقع أسيرًا في أيديهما، ثم اتجها إلى بيروتا وديدين فأحرقا هاتين المدينتين ونهباها.

وما إن علم السلطان محمد الفاتح بهزيمة جيشة حتى خرج من فوره إلي أدرنة وعسكر بين بيروتا وصوفيا، وكان هونياد قد عاد إلى المجر، ووجد (برنكوفيتش) ملك الصرب نفسه ضعيفًا أمام قوة السلطان الفاتح فاستسلم وقبل دفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دوك ذهبي، وعاد السلطان الفاتح إلى القسطنطينية ريثما تواتيه الأحوال الجوية ويتحسن الطقس، فقد كان الجو شديد البرودة، وعندما يتحسن سيواصل الحرب.

وجاء ربيع سنة (٨٥٩هـ - ١٤٥٥م)، فزحف السلطان محمد الفاتح إلى صربية، وحاصر نوقوبردة أغنى مدينة صربية على الإطلاق، فقد كانت بحق مدينة المناجم، وسُميت (أمُ المدن)، وهذه المدينة كانت منطقة صراع بين العثمانيين والصرب، فقد سبق أن استولى عليها العثمانيون ثم استردها الصرب.

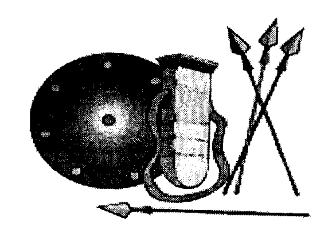
حاصر محمد الفاتح (أم المدن) لمدة أسبوع، وبعد أسبوع استسلمت هذه المدينة للسلطان محمد الفاتح، في أول يونيو ١٤٥٥ فجعل عليها واليًا وقاضيًا وقائدا للقلعة، وأخضع الفاتح بعد ذلك عدة قلاع أخرى، ثم عاد إلى القسطنطينية ولم يبق أمامه من قلاع في صربية غير بلغراد.

شعر الناس في أوربا بالخطر الإسلامي المتمثل في العثمانيين، وأحسوا بالتهديد، فقد سقطت القسطنطينية قبل عامين، وقد كانت معقل النصرانية في أقصى شرق قارة أوربا، وفكر الناس أنه إذا استولى العثمانيين على بلغراد وهي

(بوابة المجر) فلن يقف في سبيلهم بعد ذلك شيء، ومن ثم تفتح ألمانيا وأوربا كلها، فهب الراهب كايستراثو يلهب صدورالناس ويشد من عزائمهم، وقد كان خطيبًا منوهًا مثيرًا، وجاب بلاد أسبانيا وفرنسا والمجر وألمانيا وبولندا يدعو الناس إلى حرب صليبية على الأتراك العثمانيين.

وكذلك فعل البابا كاليكست الثالث، فدعا أهل أوربا إلى قتال العثمانيين، واختار (هونياد) القائد المجري ليتولى قيادة الحملة الصليبية، يعاونه في ذلك مندوبه جان أنجيلوا، وكان جان أنجيلوا راهبًا متحمسًا خطيبًا.

واستعد الحلف الصليبي الذي شمل ملك المجر وملك أرجونة وأمراء من إيطاليا والبنادقة والجنويين وفرسان دودس وألمانيا بولندا وصربيا، وتجمعت جيوشهم الجرارة تحت لواء هونياد لطرد العثمانيين من أوربا وإعادتهم إلى الشرق مرة أخرى.



معركة بلغراد

بلغراد هذه مدينة منيعة، تقع عند نهاية نهر الساف في نهر الطونة، فنهر الطونة شمالها ونهر الساف يقع غربها، فهي عبارة عن شبه جزيرة، يحيط بها من جانب هذين النهرين سور واحد سميك متين، ومن جانب البر سوران عظيمان وخندق واسع عميق، وقد كانت بلغراد جزء من صربية وتابعة لها، ولكن عندما توغل الأتراك في أوربا طلب ملك المجر من جورج برنكوفيتش أن يُسلِّم إليه هذه المدينة؛ لأنها ضرورية للدفاع عن حدوده، ولأنه أقدر على الدفاع عنها، ورضي جورج برنكوفيتش ذلك، وسلَّم إليه بلغراد في مقابل قلاع وأراض في داخل المجر تعطى له لتكون ملجأ للفارين من أهل صربية (١٤٣٥)[1].

ونعود إلى محمد الفاتح، والذي لم ينتظر حتى يفاجئه هجوم هؤلاء، بل سار إلى بلغراد على رأس مئة وخمسين ألف مقاتل، ورأى الفاتح أن يحاصر هذه المدينة من ناحيتي البرِّ والبحر بعد أن أمَّن جميع حدوده التي قد تطعنه من الخلف، وبعث بسفنه إلى الطونة من طريق البحر الأسود لتجعل من نفسها سدًا قويًا في النهر تجاه بلغراد يمنع عنها كل مدد أو معونة قد تأتي عن طريق النهر من الشط الثاني.

وخرج السلطان محمد الفاتح على رأس جيشه الضخم، وما إن وصل إلى مدينة (كرسوفاز) حتى أمر جنوده وقادته بنصب المدافع التي ستدك أسوار مدينة بلغراد، وقد أصاب جنود الفاتح في هذا اليوم شيء من الغرر والاستخفاف بالعدد، وأعجبتهم كثرتهم وقوة معداتهم، فقد فتحوا القسطنطينية

---

(١) الرشيدي (ص١٦٢).

أعظم قلاع بيزنطة في الشرق وأشدها مناعة، فكيف ببلغراد هذه إلى جانب القسطنطينية، وظنوا أنها رحلة سهلة، واستخفوا بعدوهم واستضعفوا قوته، وهنا مكمن الخطورة.

أما هونياد قائد الجيش الصليبي، فقد هبط بسفنه من بود، وكانت تساوي السفن التركية في العدد والكثرة، وكلنها كانت أشد صلابة وإحكامًا في الصنع وأكثر مراسًا ومهارة في النزال والقتال من السفن التركية الحديثة العهد. وبمساعدة الريح وتيار النهر انقضت سفن هونياد على السفن العثمانية الرابضة، فمزقتها كل ممزق، فغرق بعضها في قاع النهر وشل بعضها عن السير فجرفها التيار.

ولما رأى الفاتح ما أصاب أسطوله، أمر بحرق بقية سفنه لكيلا لا تقع غنيمة في يد عدوه، وقتل من الجيش العثماني في هذه المعركة عدد كبير، وأنزل هونياد جنوده المغاوير بلغراد في سهولة ويسر وهم يصيحون بفرح ونشوة، وكان كابسترانوا خلال هذه المعركة واقفًا على الشاطئ يلوح بعلم الصليبيين ويُحرض المقاتلين ويهتف باسم المسيح، وكفَّ السلطان الفاتح عن محاصرة بلغراد من ناحية النهر، وحصر كل جهده وقوته في جانب البر، وركز هجماته المتوالية على المدينة قبل أن تصل إليها الإمدادات من الطونة والساف، واستشهد في هذه المعركة قره جة باشا، أحد قادة الفاتح البارزين، فقد أصابته قذيفة وصرعته في الحال، وكان لفقده أثر شديد على العثمانيين.

ولكن المدفعية العثمانية صبت نيرانها على سور المدينة واستطاعت أن تفتح بعض الثغرات فيه، فأمر السلطان الفاتح في صباح ١٧ شعبان ٨٦٠هـ - ٢١ يوليو ١٤٥٦م بالهجوم، وكان هجومًا ساحقًا قويًا عنيفًا كاد يزلزل النصارى، مما جعل هونياد يفكر في الفرار لولا الراهب كابسترانوا الذي ظل يبعث روح

الحماسة والحمية في الجيش الصليبي، وجاء بجنود جديدة، مما اضطر الأتراك إلى ترك مواقعهم الجديدة التي كانوا قد احتلوها، ولكن ذلك لم يوهن عزم الفاتح، وأخذ ينظم صفوفه من جديد وقرر معاودة الهجوم على المدينة في السادس من أغسطس.

وفي صباح السادس من أغسطس كان الجيشان على أهبة الاستعداد للقتال، وهجم العثمانيون بكل قوتهم، واندفع كثير منهم إلى داخل المدينة، ووقف الفاتح يحث جنوده ويشجعهم، بينما كان كابسترانو يحرض الجنود ويشجعهم كعادته، واشتد القتال في عنف، وتبادل العثمانيون وأعداؤهم النصر مرة هنا ومرة هناك، إلى أن جاء هونياد بجنود جديدة أحاطت بالعثمانيين الذين كانوا في داخل المدينة، وشددت عليهم الخناق، وكان السلطان الفاتح في هذه اللحظات يقاتل بنفسه عند أسوار المدينة، وفيما كان القتال على أشُده أصيب الفاتح بجرح بالغ في فخذه تفجر منه الدم وسقط من ظهر جواده مغشيًا عليه، وأثار ذلك الحماس بين النصارى فاندفعوا نحوه يريدون قتله أو أسره، ولكن جنود الفاتح والإنكشارية تصدوا لهؤلاء وقاتلوهم وحملوا سلطانهم إلى معسكره، والذي ما إن أفاق حتى غضب غضبًا شديدًا.

وانتهز الراهب كابسترانو هذه الفرصة فانقض في كوكبة من جنوده على العثمانيين وردهم عن أسوار المدينة، وهم بملاحقتهم ومطاردتهم لولا أن هونياد نهاه عن ذلك، لمعرفته بالعثمانيين وأنهم لن يستكينوا وسيعاودوا القتال والهجوم إذا طاردهم، فمن الخير تركهم ينسحبون، ويتم تسهيل ذلك لهم.

انسحب السلطان الفاتح عائدًا إلى أدرنة بعد أن توقف في صوفيا، وقال في إصرار وتحد: إن بلغراد ستسقط في أيدينا عاجلاً أو آجلاً، وإذا لم أستول أنا عليها فإن أبنائي الشجعان سيستولون عليها».

وقد فرح النصارى بنصرهم وزهو به، ويرجع الفضل في هذا النصر إلى القائد هونياد والراهب كابسترانو، وعم الفرح والابتهاج جميع أرجاء العالم الغربي، لاسيما روما مقر البابوية حيث أقيمت احتفالات ومهرجانات عظيمة، وأمر البابا كاليست الثالث بأن يكون السادس من أغسطس (عيد التجلي)، ونالت بلغراد شهرة عظيم، أما هونياد الذي استعاد شهرته العسكرية القديمة، فإنه لم يعش طويلاً، فقد أصيب بجرح، وانتابته حمى عنيفة قضت عليه في أغسطس ١٤٥٦، وبفقده تأثر المعسكر الغربي تأثرًا كبيرًا، فقد كان رمزًا لصمودهم وانتصارهم.

أما جورج برنكوفيتش، فقد أصبح شيخًا كبيرًا طاعنًا في السن، وما لبث أن مات في قلعته بسمندرة في ٢٤ ديسمبر ١٤٥٧م وترك خلفه زوجته إيرين وابنته ماريا أرملة السلطان مراد الثاني وأبناءه الثلاثة جوبجوار وأيتين ولازار، وكان لازار هذا أصغر الثلاثة، ولكنه كان أكثرهم طموحًا وأشدهم جرأة وطمعًا في الحكم والتفرد به، فسمَّ والدته وطرد أخويه، وخشيت ماريا على نفسها من بطشه ففرت مع بعض أقربائها إلى السطان محمد الفاتح واستنجدت به وقد أكرم ذلك الرجل العظيم وفادتها وأنزلها خير منزل[1].

وعرض لازار على السلطان محمد الفاتح أن يدفع جزية سنوية كبيرة، غير أنَّه لم يتمتع بثمرة جريمته طويلاً، فقد مات بعد شهرين من استبداده بالحكم في ٢٠ يناير ١٤٥٨م، وقد أوصى قبل مماته بتزويج ابنته بولي عهد البوسنة

---

(١) «تاج التواريخ» لسعد الدين.

إستفان توماسيفيتش، ونفذت زوجته الوصية، كما رأى ملك المجر ماتياس كورفان في هذه المصاهرة بين بيتي صربية والبوسنة ما يقوِّي الجبهة النصرانية ضد الأتراك، فبادر إلى الاعتراف بـ (إستيفان توماسيفيتش) حاكمًا لصربية، وخطت (هلين) خطوة أخرى لتأمين بلادها ضد الأتراك فوضعتها تحت حماية البابا وسيادته، وبادر البابا كاليكست الثالث من جهته فأرسل مندوبه الخاص أنجيلوا إلى صربية[1].

ولكن ما فعلته هلين أغضب الصربيين وصاحوا في ووجهها كما صاح الروم من قبل في وجه قسطنطين ملك القسطنطينية، فقالوا: «لأن نكون من الأتراك خير من أن نكون من الرومان الكاثوليك»، وآثروا أن يفتحوا أبوابهم للعثمانيين الأتراك على أن يفتحوها للبابا، واختاروا زعيمًا لهم هو (ميخائيل أبوغوفيتش)، ولكن هلين احتالت عليه وأوهمته أنها تريد مفاوضته فذهب إليها في قعلتها بسمندرة فاعتقلته وأرسلته أسيرًا إلى المجر.

وفيما كان هذا الصراع، وجدت هلين السلطان محمد الفاتح تحت أسوار سمندرة، وقد أُخذت هلين على غرة ولم تجد مفرًا من التسليم، وأذن لها أن تخرج بجميع أموالها، وخضعت بقية القلاع بعد ذلك للعثمانيين ما عدا بلغراد، وصارت صربية منذلك الحين ولاية من ولايات الدولة العثمانية (٨٦٣ - ١٤٥٩م).

وكتب السلطان محمد الفاتح إلى سلطان مصر الأشرف إينال يبشره بهذا الفتح، وأهدى إليه بعض الأسرى وأصنافًا مختلطة من الأقمشة.

---

(١) الرشيدي «محمد الفاتح».

وتبقى البوسنة والهرسك، فقد ظلت خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر فريسة للمتنافسين الطامعين، يتنازعون الملك فيما بينهم، ولم يتوصل الملك إستيفان توماسيفيتش آخر ملك البوسنة إلى العرش إلا باغتيال والده عام ١٤٦١م بمعونة عمه راديفوج.

وقد أصبح العثمانيون بعد استيلائهم على صربية، يجاورون البوسنة، وكان ملك هذه البلاد: (إستيفان توماسيفيتش أصرح عداوة وأشد خطرًا على الدولة العثمانية من أمير صربية، إذ كان هذا الملك حليفًا للبابا والبندقية والمجر، وكان يسعى إلى تأليب الدول النصرانية على العثمانيين.

ولما عزم السلطان محمد الفاتح على إخضاع البوسنة سنة (٨٦٦هـ - ١٤٦٢م) بعث رسولاً إلى ملكها يطلب منه الخضوع للدولة العثمانية والاعتراف بسيادتها ودفع الجزية لها، وإلا فالقتال. فما كان منه إلا أن إقتاد رسول محمد الفاتح إلى خزائن الدولة وأشار بيده إليها ثم قال له: «إنك لترى الأموال هنا مكدسة، ولكني لا أرى إرسالها إلى السلطان، فإن حاربني استعنت بها على قتاله، وإذا اضطررت إلى الفرار واللجوء إلى بلدٍ آخر استعنت بها على تكاليف الحياة».

واستعد السلطان محمد الفاتح للزحف إلى البوسنة، ولكن جدت حوادث اضطرته إلى تأجيل الحملة إلى السنة التالية، أما ملك البوسنة فلم يكد يشعر باقتراب الهجوم العثماني حتى كتب إلى البابا (بي الثاني) ينبئه بالخطر القادم، ويستعجله في إرسال النجدة والمدد والمعونة، وطلب إليه أن يستحث ملك المجر على معاونته ومعاضدته في مقاتلة العثمانيين، بدلاً من تكرار مأساة القسطنطينية على حد تعبيرهم، وإذا تم للأتراك العثمانيين الاستيلاء على البوسنة فإنهم سينقضون بعد ذلك على إيطاليا وروما نفسها.

ولكي يؤكد ملك البوسنة ولاءه وإخلاصه للبابا طلب أن يكون تاجه من عنده، وقد أجيب إستيفان توماسيفيتش إلى طلبه هذا، فبعث إليه البابا بالتاج وقام مندبوه بتتويجه في عاصمته الجميلة يايتزا في حفل فخم حفت به جميع مظاهر الأبهة والفخامة، واشترك فيه النبلاء والأغنياء، وأسبغ توماسيفيتش على نفسه في هذا الحفل الألقاب الملكية الرفيعة الضخمة التي ليست له، وكان ذلك هو كل ما ناله هذا الملك الأحمق من البابا، ولكن الجند والمال والسلاح لم ينل منها شيئًا، وبذلك عجَّل بنهاية حكمه ونهايته شخصيًا.

وفي مطلع فصل الربيع من ٨٦٧هـ - ١٤٦٣م، بعث السلطان محمد الفاتح رسولاً آخر إلى ملك البوسنة يخيره بين دفع الجزية أو القتال، فما كان من توماسيفيتش إلا أن قبض على رسول الفاتح وهمَّ بقتله لولا أن نهاه وزيره؛ لأنه بذلك إنما يستفز غضب السلطان ويعجل هلاك نفسه والقضاء على مملكته، وليس من المروءة قتل الرسول، فلما عاد هذا الرسول أخبر السلطان الفاتح بما رأى فغضب غضبًا شديدًا، وسار بجيشه من فوره إلى البوسنة وحاصر أكبر قلاعها وأمنعها وأقواها وهي قلعة (لوفجة) فاستسلمت بعد ثلاثة أيام، وحاصر بعد ذلك قعلة يايتزا فاستسلمت أيضًا بعد مقاومة ضعيفة.

وكان الملك (إستيفان توماسيفيتش) موجودًا بهذه القلعة، فما كان منه إلا أن فرَّ منها عندما سمع باقتراب الفاتح ولجأ إلى قلعة كلوج الحصينة القائمة على نهر سانا وأرسل السلطان محمد الفاتح وراءه وزيره محمود باشا لمطاردته ومحاصرته، وما إن حاصر محمود باشا القلعة حتى بعث إلى ملك البوسنة يحثه على التسليم وطلب الصلح وأمنه على حياته، فوافق (توماسيفيتش) على ذلك حفاظًا على حياته، فخرج من قلعته وسلمها لمحمود باشا، وتلقى منه كتاب

الأمان، واستاء السلطان محمد الفاتح من تصرف وزيره محمود باشا؛ لأنه كان يرى أن يمضي محمود باشا في حصار القلعة حتى يستولي عليها عنوة، ويكون بعد ذلك في حل من تقرير مصير من بها من المقاتلين بالقتل أو الأسر.

وقبح الفاتح رأي وزيره وعاتبه عتابًا شديدًا. وتتابعت سائر القلاع بعد ذلك للإستسلام أمام العثمانيين، وقبل منتصف شهر يونيو ١٤٦٣م كانت البوسنة كلها قد صارت كلها ولاية من ولايات الدولة العثمانية.

ولم يجد الفاتح مفرًا من الوفاء بالأمان الذي قطعه محمود باشا لملك البوسنة رغم كراهيته لهذا الأمان، ولكن هذا الأمان لم يكن مستحقًا لهذا الملك الخائن، فقد حاول ومعه عدد من الأمراء الانتفاض والثورة برغم ما لقوه من الأمن والسماحة وحسن المعاملة، لذلك استفتى السلطان الفاتح العلماء الذين صحبوه في هذه الحملة في جواز قتلهم.. فأفتى الشيخ علي بطامي بجواز قتلهم؛ بل استل سيفه ونفذ بنفسه هذا الحكم في الملك الخائن توماسيفيتش ثم قتل الأمراء الآخرين[1].

وهكذا تم للعثمانيين فتح البوسنة بقلاعها الكثيرة المنيعة، وتم هذا الفتح في سهولة ويسر، ولم يكلفهم عناءًا كثيرًا أو جهدًا كبيرًا، وقد ساعدهم على هذا الفتح سماحتهم ومروءتهم وحسن معاملتهم للطبقات الفقيرة المعدمة التي ما إن جاء العثمانيون حتى شعروا بأنهم في أمان أكبر من أمان ملكهم، وقد اعترف ملك البوسنة بذلك عندما كتب إلى البابا يقول له: إن العثمانيين يعاملون الفلاحين بلطف وأريحية».

---

(١) المصدر السابق.

وقد لقي فريق كبير من أهل البوسنة اضطهادًا شديد بسبب أنهم على مذهب خاص بعقيدتهم عرف بالبوجوسيل، ولهذا تعرضوا في القرن الثالث عشر لاضطهاد الكاثوليك الرومان، وطالما دعا البابوات إلي شن حرب صليبية عليهم، حتى أن البابا (جون الثاني والعشرون) كتب كتابًا في ١٣٢٥م إلى ملك البوسنة يطلب منه أن يقضي على هؤلاء الخوارج ولا يبقي منهم أحدًا، واشتد اضطهادهم أيضًا في القرن الخامس عشر الميلادي، وبلغ هذا الاضطهاد حدًا لا يطاق، ففر منهم من فر إلى البلاد المجاورة طالبًا النجاة.

وقد كان هذا الاضطهاد سببًا في تمسكهم بعقيدتهم، وزادهم كرهًا وحقدًا على ملوكهم وحكوماتهم الظالمة، وتطلعت نفوسهم إلى من ينقذهم من هذا الجحيم الذي يعيشون فيه، ولما ظهر العثمانيون وجدوا فيهم ضالتهم، فاستغاثوا بهم واستنجدوهم، حتى أنهم كانوا يفضلون عمامة المفتي على قبعة الكاردينال.

فلما جاءهم العثمانيون لم ينهض أحد منهم إلى قتالهم، بل رحبوا بمقدمهم واستقبلوهم استقبال من جاء لإنقاذهم وتحريرهم، ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عن (البوجوميل) إلا قليلاً، ويبدوا أنهم دخلوا في الإسلام بمحض إرادتهم في جموع كثيرة على أثر الفتح التركي، وبقيتهم اعتنق الإسلام تدريجيًا[١].

ويرجع المؤرخون إقبال البوجوميل على الدخول في الإسلام إلى ذلك التشابه بين مذهبهم وبين الإسلام في نواحي كثيرة كالتواضع وتحريم الخمر وعبادة القديسين ومريم العذراء وغير ذلك .. وأشربت نفوس البوجوميل حب الإسلام والتعلق به، والتعصب له حتى فاقوا بذلك الأتراك العثمانيين أنفسهم.

---

(١) «الدعوة إلى الإسلام» السير توماس أرنولد.

وجاءت المحاولة الأخيرة في إعادة البوسنة من ملك المجر (ماتياس كورفان)، فاستولى في السنة التالية على يايتزا لبعض الوقت، ولكنه ما لبث أن خرج منها. واتجه الفاتح بعد ذلك إلى الهرسك؛ لأن فتح هذه البلاد في نظر الفاتح ضروري للجانب الحربي والعسكري، وذلك لمناعة حصون الهرسك وقلاعهم وموقعهم الاستراتيجي الهام المشرف على بحر الإدرياتيك.

وعهد الفاتح بفتحها إلى وزيره محمود باشا، فما إن علم أمير الهرسك بزحف الجيش العثماني نحوه حتى فرَّ إلى إحدى الجزر القريبة، فلما أوشك محمود باشا على فتح الهرسك، وإخضاعها بجميع قلاعها ومدنها سارع ذلك الأمير وأرسل إلى السلطان الفاتح بأثمن الهدايا ملتمسًا منه العفو والأذن له بأن يقيم في عاصمة مملكته السابقة، فوافق محمد الفاتح، فقسم الهرسك قسمين الأول وهو الأهم والأخطر، وقد ضُم إلى الدولة العثمانية، والثاني للأمير الهرسكي. أما ابنه الذي أوفده رسولاً إلى الفاتح فقد شرح الله صدره للإسلام، ونال شرف المصاهرة، وتدرج في مناصب الدولة العثمانية حتى رُقيَّ إلى منصب الوزارة[1].

وعندما مات أمير الهرسك بعد ذلك ضمت البقية الباقية من بلاده إلى الدولة العثمانية، وحظيت ما تحظى به الممالك المحرومة من يمن العدالة، وأصبحت مركزًا من مراكز رايات الإسلام، وامتلأت أرجاؤها بالمنشآت الإسلامية[2].

(١) «تاج التواريخ» سعد الدين.
(٢) المصدر السابق.

فتح المورة

بلاد المورة كانت مقسمة بين الأميرين البيزنطيين الأخوين: (توماس وديمتريوس)، فأقام الأول في تبراس فيما سكن الثاني في إسبرطة، ولم يكن الأخوان على وفاق بينهما مما أدى إلي تدخل الألبانيين في شؤونهما الداخلية، بالإضافة إلى أنهما نزعا إلى الظلم والاستبداد وتأخرا عدة سنوات في دفع الجزية المفروضة عليهما.

ولم يكن بوسع السلطان محمد الفاتح السكوت على التدخل الألباني في المورة، كما لم يرضى عن تزايد الفوضى وظلم السكان، فكان لابد من التدخل السريع لوضع حد لكل ما يحصل.

وقاد السلطان محمد الفاتح حملة عسكرية في عام ١٤٥٨ لفتح بلاد المورة ودخلها من مضيق كورنثوس، واستطاع إجبار الألبانيين على الخروج من البلاد، وفرض على البيزنطيين جزية سنوية قدرها خمسة آلاف قطعة ذهبية كما فتح عدة مدن فيها مدينة سالمينكو التي قاومت مقاومة عنيفة، فقطع الفاتح عنها الماء الذي كان يسقيها، فاستسلمت المدينة.

ولكن قائدها جريتزاس انتقل إلى القلعة وواصل قتاله هناك إلى أن نفذت قواه فعرض على السلطان الفاتح أن يسلم له على أن يأذن له بالرحيل إلى ليبانت، وقد قدر الفاتح لهذا القائد شجاعته وبسالته وتركه يذهب حيث أراد[1].

(١) «عاشق زادة تاريخي» استانبول ١٣٣٢.

وكان للسلطان محمد الفاتح مواقف عظيمة تتسم بالشهامة والسماحة، حدث ذلك في أيام فتوحات المورة، فقد كان السلطان محمد الفاتح عند بدء توغله في المورة قد أرسل قائده زغنوش باشا لفتح الشمال الغربي من شبه الجزيرة، وحدث أن أعطى هذا القائد حامية إحدى القلاع الأمان على حياتها وأموالها، ولكنه نكث قوله عندما رأى وفرة الأموال، فاستحوذ عليها بعد أن قتل رجال الحامية، فلما بلغ ذلك السلطان استشاط غضبًا وعزل زغنوس باشا من منصبه.

أما عن حاكمي المورة ديمتريوس وتوماس، فإن السلطان الفاتح قد جعل للأول قصرًا في مدينة إينوس وعيَّن له راتبًا سنويًا سخيًا، وقضى الأمير الرومي بقية حياته في عيشه رافهة هادئة ثم ترهَّب في آخر عمره وتوفى ١٤٧١م بأدرنة، أما توماس فإنه أول ما علم بدخول السلطان الفاتح أسبرطة فرَّ إلى ميناء (نافارين) وهرب على إحدى السفن إلى كورفو، ومن هناك بعث إلى السلطان الفاتح يعرض عليه أن يسلم مدينة تونمفازيا على أن يوليه على الجنوب الشرقي من المورة، ولكن الفاتح لم يكترث لأمره.

وظل توماس في كورفو يترقب إلى أن فقد كل أمل في العودة إلى المورة فأقلع في أواخر ١٤٦٠م مع بعض رجاله من النبلاء إلى روما ليطلب المعونة والمساعدة من البابا (بي الثاني) ودوق ميلان، وغيرهما من أمراء النصرانية، ولكنه لم يلق شيئًا مما كان يريد حتى غلبه اليأس فعاد أدراجه إلي درازو بألبانيا، وظل بها حتى مات في ١٢ مايو ١٤٦٥م وتفرق أصحابه من بعده وتشتتوا في أنحاء إيطاليا[١].

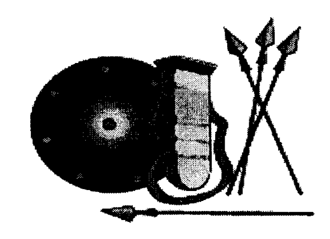
---

(١) د/ سالم الرشيدي «محمد الفاتح».

وأصبحت بلاد المورة التي كانت ثورة للفتن والحروب، أصبحت ساكنة، فقد استأصل محمد الفاتح منها كل أسباب الفتن فعاشت في رفاهية ورغد واطمئنان.

وبفتح أثينا والمورة أصبحت اليونان كلها للدولة العثمانية بإستثناء بعض المواقع والقلاع المتفرقة على الشواطئ مثل كورون ومورون وأرجوس وليبانت، وقد كان أغلبها للبنادقة.

وقد اهتم محمد الفاتح بمضيقي البوسفور والدردنيل؛ إذ يقع بين هذين المضيقين بحر مرمرة الذي يفصل بين تركيا الأسيوية وتركيا الأوربية، فشيد القلاع وقام بزيادة الدعم والتحصين للمواقع القريبة من القسطنطينية، وتملك الجزر الكبرى في بحر إيجه وعزز دفاعات دولته وبلاده.



فتح الأفلاق والبغدان

هاتان الأمارتان الرومانيتان هما في شـمالي نهر الدانوب، وتحيط بهما ثلاث دول كبرى تتنازع السيادة عليهمـا: بولندا والمجر والدولة العثمانية، فكانتا بحكم موقعهـما الجغرافي تحالفان هذه الدولة تارة، وتلك تارة أخرى وفـقًا للمصلحة، لذلك اتسمت سياستهما بالتذبذب والتغير.

وفي عام ١٤٦٠م كان حـاكم الأفلاق دراكول على موعد لتوقـيع معاهدة مع السلطان محـمد الفاتح تعهد بموجـبها بأن يدفع جزية سنوية قـدرها عشرة آلاف دوكا مقابل احتفاظ الإمارة بإدارتها الداخلية وحماية عثمانية ضد أي عدو خارجي[١].

وفي أثناء ذلك، كان يسعى لـلتحالف مع ملك المجر ماتيـاس كورفف ضد العثمانيين، وبالفعل تمَّ له ما أراد حيث أغـار على الأراضي العثمانية في بلغاريا وأحرق المدن والقرى[٢].

وقام السلطان مـحمد الفاتح ليواجـه هذا الرجل الخائن لعهـده، ليضع حدًا لتجاوزاته وتعدياته، وسار إليه على رأس جيش يعَدُّ بمائة وخمسين ألف جندي، فدخل الأمارة ووضع يده عليها، وهرب الخـائن دراكول والتجأ إلى ملك المجر، فعـزله السلطان وولى مكانه أخاه راؤول الذي تربى في البـلاط العثمـاني، كان

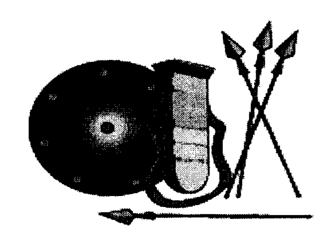
---

(١) «تاج التواريخ» سعد الدين (جـ١ - ص٤٨٦).

(٢) المصدر السابق.

ذلك في عـام ١٤٦٢م، وبذلك استطاع محـمد الفـاتح فـتح بلاد الأفـلاق، وأضحت تحت السيطرة المباشرة للخلافة العثمانية.

أما البغـدان فكان قائمًا على إدارتها أسطفـان الأكبر، الذي استـغل إنهماك الفاتح بالحـروب المتواصلة في أسيا الصـغرى وبلاد اليونان، فقـرر التخلص من التبعيـة العثمانية، وهاجم إمارة الأفلاق، لذلك قـرر السلطان قتال أسطفان هذا لإعادة إخضاعه، إلا أنه كان يتغلب كل مرة على الجيوش العثمانية، ولم يتمكن العثمانيون من إخضاع هذه الإمارة إلا في عام ١٥٥٤م[1].



(١) «تاريخ سلاطين آل عثمان» أحمد القرماني (ص٣١).

فتح ألبانيا

كانت ألبانيا شأنها شأن الصرب، فهي تقع بين أملاك الدولة العثمانية وأملاك البندقية التي أبدت عداوة شديدة للدولة العثمانية، حيث كان التوسع العثماني في البلقان يعني إغلاق مجالات حيوية تعمل فيها البندقية.

وكان على رأس ألبانيا رجل قوي يزود عن بلاده بقوة سيفة، وهزم جميع الجيوش العثمانية التي قاتلته في عهد السلطان مراد الثاني، وابتهج أهل إيطاليا ابتهاجًا عظيمًا بانتصاراته، وبعثوا إليه يهنئونه وأرسل إليه الفونس ملك نابولي الجنود والرجال المدربين من المعدنيين والمدفعيين.

وهذا الرجل هو إسكندر بك الذي حاول العثمانيون القضاء عليه وفتح المدينة الألبانية كُرُويا، إلا أنهم لم يتمكنوا من السيطرة على ألبانيا إلا بعد وفاة هذا الرجل.

وقد واصل السلطان محمد الفاتح حملات والده على ألبانيا، فوجه إليها بعد فتح القسطنطينية جيشين متواليين هزمها إسكندر بك، وزاده ذلك ثقة وإيمانًا بقواته، فحاصر مدينة بيرات التي كانت لا تزال في أيدي العثمانيين، وشدد عليها الضغط وكاد يستولي عليها لولا أن جاء جيش عثماني بقيادة - صوالي - فانقض على إسكندر بك وهزمه، فلجأ إلى جباله وهو يرى فريسته وقد أفلتت من يده، وتميزً من الغيظ وحد بأسنانه ونفث الدم من شفته السفلى، وقتل في هذه المعركة صديقه موزاخي وقد كان من خيرة قوّاده، وقتل معه جميع من كان معه من جنود نابولي الذين أرسلهم الملك الفونس، وعظم ابتهاج الأتراك بهذا النصر، فقد كان أول نصر يحرزونه على الألبانيين، ولكنه كان آخر نصر أيضًا.

وفيما كان إسكندر بك يقاسي آلام الهزيمة إذ خانه صديقه وزميله في السلاح دبره لي موسى، وحاول أن يستميل الألبانيين ويغريهم بالفرار معه إلى الجيش العثماني الظافر، وترك إسكندر بك المهزوم الذي انتهى عهد انتصاراته، ولن يقوى بعد ذلك على مقاتلة العثمانيين، ولكنه لم يجد من يصغي إليه، ففر وحده، وصحب القائد العثماني صوالي في عودته إلي القسطنطينية.

وقد ثارت في نفس السلطان محمد الفاتح الشكوك في بداية الأمر في حقيقة أمره ونواياه، واعتقد أن إسكندر بك بعثه عينًا يتجسس عليه ودسيسًا يتعرف أخباره وأسراره فراقبه في يقظة وحذر فترة من الزمن حتى اطمأن بعض الشيء، وأكد (دبره لي موسى) للسلطان أنَّه قادر على إخضاع إسكندر، وطلب إليه أن يمدَّه بخمسة عشر ألف جندي فقط، ويرجع إليه بعد ذلك برأس إسكندر بك، وأجابه الفاتح إلى ما طلب.

وخرج موسى بجيشه إلى ألبانيا والتقى به إسكندر بك في (دبر السفلى)، وما إن اشتبك الجيشان حتى أستطاع إسكندر بك هزيمته وتمزيق الجيش العثماني، وفرَّ موسى عائدًا إلى القسطنطينية ودخلها وهو منكس الرأس في خزي، وتجهم له السلطان الفاتح وأعرض عنه، واستحوذ اليأس والقنوط علي موسى وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولم يجد مقامًا في القسطنطينية فعاد إلى ألبانيا وارتمى بين قدمي إسكندر بك يستغفره عن زلته، فعفا عنه وأعاد إليه ما كان له من المنزلة.

ولم يكد إسكندر بك يفعل ذلك حتى فوجئ بصدمة أُخرى أشد عنفًا ومرارة، فقد خرج عليه ابن أخته حمزة وفرَّ إلى القسطنطينية بعد أن وعده السلطان الفاتح بأن يجعله واليًا على أبيروس إذا استطاع أن يهزم إسكندر بك،

والواقع أن إسكندر بك قد ساوره شيء غير قليل من القلق والخوف؛ لما كان يعرفه عن ابن أخته حمزة من الكفاية والذكاء والإحاطة بمواقع بلده، وقد أرسله السلطان الفاتح إلى ألبانيا في أربعين ألفًا من الجند ومعه القائد العثماني عيسى بن أوره نوس، وتأهب إسكندر بك للقائهما، بعد أن تخير لنفسه أحسن المواقع، وانقض على الجيش العثماني في سهل السبوبين نهري ماتيا ودرين، وأمعن فيه فتكًا وتقتيلاً حتى جرت دماؤهم غزيرة في نهر درين وصبغه باللَّون القاني، وانهزم الأتراك إنزامًا تامًا، وأسر حمزة مع أحد كبار قادة الجيش التركي.

ودخل إسكندر بك مدينة كرويا ظافرًا منتصرًا محملاً بالغنائم الوفيرة، وأزاع نبأ انتصاره على جميع ملوك أوروبا زاعمًا أنه قتل من الأتراك ثلاثين ألفًا، وبعث إليهم ببعض الغنائم والأسرى، وعفا إسكندر بك عن ابن أُخته حمزة واتفق معه على أن يتظاهر بالفرار ويذهب إلى القسطنطينية دون أن يثير الريبة والشك ويعود منها بزوجته وأولاده، ولكنه مات بها مسمومًا.

ولم يكن في وسع السلطان محمد الفاتح آنذاك أن يوالي إرسال حملاته إلى ألبانيا بغير انقطاع، فقد كانت هناك أمور أخرى هامة تغشله في آسيا ومجابهة البندقية التي اندلعت نيران الحرب بينها وبينه، ورأى أن لا مناص من مهادنة إسكندر بك للتفرغ لهذه الشؤون، فأوفد إلى ألبانيا مزيد بك ومعه قدرًا كبيرًا من المال لافتداء كبار الأسرى من العثمانيين ومباحثة إسكندر بك في عقد الهدنة.

وكان إسكندر بك من جانبه يرى أن الهدف الذي يرمي إليه من الحرب هو صد الغزاة ومنعهم من احتلال بلاده، وقد نجح في ذلك أيما نجاح، وكانت بلاده بعد هذه الحروب الطويلة المتوالية بالرغم من انتصاراته في أشد الحاجة إلى الراحة

وأن ينصرف الزراع إلى مزارعهم، ولابد له بعد ذلك من استجابة دعوة البابا (بي الثاني) وحليفه ملك نابولي إلى الشخوص إلى إيطاليا لمعاونته في حربه ضد الفرنسيين.

وهكذا انتهت المفاوضات التي كانت تحدوها الرغبة من جانبي محمد الفاتح وإسكندر بك على السواء إلى عقد الصلح بينهما في (١٣ رمضان ٨٦٥هـ - ٢٢ ينويو ١٤٦١م)، وأعيدت إلى إسكندر بك قلعتا سيتفجراد وبيرات ـ اللتان كانتا يحتلهما العثمانيون ـ، ولم يكد يتم هذا الاتفاق حتى أسرع إسكندر بك في السفر إلى إيطاليا وأبلى أحسن البلاء في مناصرة حليفه ملك نابولي فرديناند الذي خلف أباه الفونس، وفي أثناء غيابه بإيطاليا قام العثمانيون بفتح المورة على نحو ما أبنا من قبل.

ولم تدم الهدنة أكثر من ثلاث سنوات، إذ لم يكد يعود إسكندر بك من إيطاليا ١٤٦٣م، حتى دعا البابا (بي الثاني) جميع النصارى إلى شن حملة صليبية موحدة على العثمانيين، وأبلغ دعوة البابا هذه إلى إسكندر بك (بول أنجلو) مطران دراز وهو صديق حميم له، ونجح في حمله على نقض عهده مع الفاتح وإقناعه بأن هذا العمل لا يعد جريرة بل هو قربةً إلى الله، واغتبط البابا بنجاح رسوله في أداء رسالته وكافأه بقبعة الكاردينالية.

ولما علم الفاتح بهذا الأمر بعث إلى إسكندر بك يذكره بما بينهما من العهد ويناشده الوفاء به والمحافظة على الهدنة، فما كان منه إلا أن سخر من الفاتح وقال: إنَّه لن يعقد معه أي عهد إلا إذا ارتد هو عن دينه المزيف (الإسلام)؟!!

ولم ينتظر إسكندر بك الجيوش الصليبية التي كان سيأتي بها البابا بنفسه إلى ألبانيا، بل بادر بالإغارة على أملاك الدولة العثمانية وتخريبها، فسيَّر إليه

الفاتح قائده شرمت بك على رأس أربعة عشر ألفًا من الفرسان، ولاقاه إسكندر بك في أوخري وأوقع به الهزيمة وأسر ثلاثة عشر شخصًا من كبار رجال جيشه، فداهم شرمت بك بأربعين ألف دوقة، وغضب السلطان الفاتح لهذه الهزيمة فسير إلى ألبانيا جيشًا آخر يقدر بخمسة عشر ألف فارس وثلاثة آلاف من المشاة بقيادة القائد الجسور (بالابان بك) وهو ألباني الأصل، وقد أظهر في حصار القسطنطينية شجاعة فائقة وبسالة نادرة، وكان أول جندي نصب العلم العثماني على أسوار هذه المدينة، وقد كافأة السلطان الفاتح على ذلك بأن رقاه إلى مرتبة القيادة.

حاول القائد (بالابان) أول الأمر أن يستميل إليه إسكندر بك بالهدايا ويغريه بالوعود الخلابة، ولكن هذه المحاولة ذهبت هباءً بغير طائل، ولم يجد (بالابان بك) في آخر الأمر مفراً من مقاتلته، وقد اختار إسكندر بك لملاقاته وكان أقهر الناس في اختيار الأمكنة (واد فخاليا) حتى لا تطغى عليه كثرة الجيش العثماني، وقد توقع أن يكون وراء هذا الوادي كمين للعثمانيين فحذر جنوده إلى ذلك قبل نشوب القتال ونهاهم عن مطاردة العدو إذا ما كُتِبَ لهم النصر في القتال.

وما هو إلا أن التحم الجيشان حتى انهزم العثمانيون وارتدوا على أعقابهم، ولم تستطع تحذيرات إسكندر بك أن تمنع ثمانية من أشجع قواده من الإندفاع وراء المهزومين، فوقعوا في شرك وأحيط بهم من كل جانب، وأسرهم العثمانيون وأرسلهم (بالابان) إلى القسطنطينية، وبادر إسكندر بك إلى دفع فدية كبيرة عنهم، ولكن الفاتح رفضها؛ فقد كان يرى في حياتهم خطراً شديداً تهون إلى جانبه كل فدية مهما عظمت، وأمر بقتلهم.

وكان لفقد هؤلاء القواد الشجعان أثر عميق من الحزن في نفوس أهل ألبانيا ونفوس الجنود الألبانية بخاصة، فلبسوا السواد وأطلقوا شعورهم ولحاهم حدادًا عليهم، وأشتد الحنق والغضب بإسكندر بك وجنوده فانقضوا على العثمانيين والتحموا بهم في معركة حامية رهيبة في (أوزيخ) بالقرب من (دبرا العيليا) أرغمت (بالابان بك) على الإنسحاب.

ولكنه لم يلبث أن عاد بجيش جديد أرسله له السلطان محمد الفاتح تعداده سبعة عشر ألف فارس وثلاثون ألفًا من المشاة، وظل يترقب فترة من الزمن حتى ظن أن الفرصة قد واتته، فهجم بكل قوته على أسكندر بك بالقرب من سنيتجراد، وحمل عليه حملة عنيفة، وحمى وطيس القتال، وأصيب أسكندر بك بجرح بالغ في ذراعه، واصطدم جواده اصطدامًا شديدًا بجزع شجرة فسقط عنه إسكندر بك مغشيًا عليه، وترددت كفَّة النصر زمنًا بين الفريقين، وما لبث إسكندر بك أن أفاق من غشيته وكرَّ على العثمانيين كرَّة عنيفة مزَّقت صفوفهم وهزمتهم هزيمة ساحقة، ولم ينج (بالابان) نفسه إلا بصعوبة.

ولم توهن هذه الهزيمة ولا هذا الإنكسار من عزم محمد الفاتح ولا عزم قائده بالابان، واقترح أن يعد جيشان قويان يزحفان إلى ألبانيا في وقت واحد من طريقين مختلفين، وتولى قيادة أحد الجيشين يعقوب أرناؤوط، وكان عليه أن يدخل ألبانيا من الجنوب متبعًا ساحل البحر، ويقود (بالابان) الجيش الثاني فيسير من تراقيا ومقدونية ويدخل ألبانيا من معابر الجبال[1].

---

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» سليمان أوزوتا (جـ١).

وعلم إسكندر بك من جواسيسه بخطط الأتراك، وأدرك أن السرعة وحدها هي التي ستمكنه من منع الجيشين التركيين من التلاقي والإطباق عليه، فعجَّل بملاقاة (بالابان) وهزمه وفيما كان جنوده يقتسمون الغنائم إذ جاءه رسول من عند أُخته (مافيرا) بأن يعقوب أرناؤوط - وهو القائد لجيش محمد الفاتح الثاني - قد دخل مدينة (بيرات) في ستة عشر ألفًا من الفرسان يكتسحون كلَّ شيء أمامهم، فأسرع إليهم إسكندر بك بجيشه وقذف إليهم من أعالي الجبال برؤوس قتلى الأتراك من جيش بالابان لكي يعلمهم أن الهزيمة قد حلت بهم، ثم اشتبك الجيشان في قتال عنيف لم يسبق له مثيل، وبحث إسكندر بك عن يقعوب حتى لمحه وسط الجند فنهض إليه وطوَّح رأسه بسيفه، وتشتت شمل الجيش العثماني بعد مقتل قائده وتمت عليه الهزيمة.

عاد إسكندر بك إلي (كرويا) ودخلها دخول الظافر المنتصر واستُقبل استقبالاً عظيمًا بهيجًا، ثم بعث إلي ملوك أوربا يبشرهم بالنصر العظيم الذي أحرزه وأرسل لهم بعض الأسرى العثمانيين، كما أتحفهم ببعض ما غنمه منهم كالجياد والسيوف والقسي، وشهَّر هذا الانتصار إسكندر بك واعتبره الأوربيون بطلاً من أبطال النصرانية الذي يدافع عنها ضد تيار الإسلام الجارف، وأصبحت جبال ألبانيا في نظر أهل الغرب معقل النصرانية الحصين الذي تتحطم على صخورة حملات الإسلام الزاحفة . . وأخذ بعض الجنود العثمانيين يتحدثون عن بسالة (إسكندر بك) وشجاعته في الحرب، تحدَّثوا بوجه خاص عن سيفه الصمصام الغريب المهول الذي يفلق الثور إلى نصفين بضربة واحدة!!

واشتاق السلطان محمد الفاتح إلى رؤية هذا السيف الأسطورة، وبعث في طلبه من صاحبه، ولكنه عندما جرَّبه وجده دون ما بلغه عنه، بل أن في الكلام

عنه مبالغة، وكتب بذلك إلى إسكندر بك، فأجابه بقوله: «إنَّ المعجزة ليست في السيف، وإنما في الساعد الذي يضرب به»[(١)].

ولم يجد السلطان محمد الفاتح بدًا بعد فشل قوَّاده أن يخرج بنفسه، فأعد جيشًا كبيرًا يربو على مائة ألف جندي، وزحف به إلى ألبانيا ودخلها في ذي القعدة (٨٧٠هـ/ يونيو ١٤٦٥م)، واستعاد بعض القلاع، ورأى إسكندر بك أنه من الحمق أن ينازل بجيشه الصغير هذا الجيش الضخم العرمرم في ميدان مكشوف، فغادر (كرويا) قبل أن يحاصرها الجيش العثماني، وترك بها حامية قوية تحت قيادة رجل إيطالي يُدعى (بالتاسار پردوشي) عرف ببراعته وحذقه في الهجوم على القلاع والدفاع عنها، ولاذ هو بالجبال وأخذ ينقض منها بين حين وحين على الجيش العثماني ويفتك بساقته.

ووجد الفاتح أن الحصار سيطول قبل أن يؤتى ثمرته، وهناك أمور هامة تستوجب عودته إلى القسطنطينية، فعهد إلى قائده (بالابان) في مواصلة حصار (كرويا) ويشدد قبضته عليها حتى تستخذى وتستسلم ووجد إسكندر بك من جانبه أن كثيرًا من أجزاء بلاده قد خرَّبتها المعارك، وأن الحروب المتواصلة التي خاضها برغم أنَّها كللت بالانتصارات قد نهكت جيشه وذهبت بكثير من خيرة قاداته ورجاله، وهناك بعض القلاع والحصون تعوزها الحاميات.

وتلفت إسكندر بك فيمن يقوم بنجدته والاستعانة به، فرأى أن أقرب البلاد إليه وإلى نجدته ومعاونته هي إيطاليا؛ إذ أنها أكثر البلاد تعرضًا للخطر، فإن الأتراك العثمانيين إذا ما استولوا على ألبانيا فلن يكون أمامهم هدف بعد ذلك غير إيطاليا، يضاف إلى ذلك أن البابوية كانت تنظر إلى إسكندر بك على أنَّه

(١) «تاريخ سلاطين آل عثمان» للقرماني.

ابن المسيح البار وحامي النصرانية الأشم، وقد رشحته من قبل لقيادة الحملة الصليبية الكبرى ضد العثمانيين، فهل تضن عليه الآن بالمعونة والنجدة؟ ألم يسبق له هو نفسه أن أنجد البابا وملك نابولي؟

وقد أسر إسكندر بك إلى بعض رجاله بعزمه على السفر إلى إيطاليا، وذكر لهم أن الأتراك سيظلون على حصارهم معتقدين أنَّه رابض بين الجبال يتربص بهم، فليس هناك إذن حاجة ملحَّة إلى بقائه في ألبانيا، وتنكر في زي فلاح وأبحر في تكتم شديد إلى روما حيث لقى البابا (پول الثاني) الذي احتفى بمقدمه.

فذكر له إسكندر بك الأمر الذي جاء من أجله ورجا منه في إلحاح شديد أن يمدَّه في جهاده إن لم يكن بالرجال فلا أقل من أن يمده بالعتاد والمال، ثم اجتمع بالكرادلة اللذين بالغوا في الحفاوة ببطل النصرانية، فوصف لهم إسكندر بك الأخطار التي تهدد إيطاليا والنصرانية، فإن الأتراك يتقدمون كل يوم، ويقتربون من إيطاليا، لقد قضوا على القسطنطينية واليونان وصربية والبوسنة، وبقيت أنا وحدي في بقعة صغيرة أقاتل بجيشي الصغير حتى نفذت قواي، فمدوا أيديكم إلينا قبل أن يفوت الأوان ويستفحل خطر الأتراك فلا يبقى على الشط الآخر من بحر الأدرياتيك رجل واحد من أتباع المسيح[١].

وتفضل البابا (پول الثاني) فخلع على إسكندر بك شارات التشريف وأهدى إليه قبعته وسيفًا باركهما بيده، وقدَّم له مالاً، ثم كتب إلى جميع أمراء النصرانية يستحثهم على معاونته ومناصرته، فأمدته جمهورية البندقية بجنود مسلحين من المشاة والفرسان كما بعث إليه رؤساء المقاطعات بمدد جديد من الرجال الأشداء.

---

(١) «محمد الفاتح» الرشيدي (ص١٩٩).

غادر إسكندر بك عائدًا إلى بلاده فوجد (بالابان بك) القائد العثماني مازال على حصار لـ(كرويا) وينتظر مددًا جديدًا من الجند سيأتي به أخوه يونس، فلما علم إسكندر بك بأمر هذا المدد صمم أن يحول بينه وبين الوصول إلى (بالابان) بأي ثمن لكيلا تزداد قوته وشدة ضغطه على (كرويا)، فكمن مع نخبة من رجال في بعض الطرق التي سيمرُّ بها يونس، ثم انقض عليه فأسره وأسر معه ابنه خضر وشتت شمل الجيش الذي جاء به، وأتى بالأسيرين مكبلين الحديد وعرضهما من بعيد على (بالابان) ثم ضربهما بالسيف نصفين.

ولما رأى (بالابان) منظر أخيه وهو يُعدم صعق وأخذته الدهشة، فقد كان يترقب المدد الذي أتي به أخوه بصبر شديد ويعلق عليه أملاً كبيرًا في الهجوم على (كرويا) التي اعتقد أنها قد أوهنها الضيق وطول الحصار، فلما رأى ما صار إليه يونس والجيش الذي جاء به تملكه اليأس والحنق وهجم بجيشه على المدينة لا يبالي ما يكون، واندفع إلى الأمام بغير رؤية كالمجنون، فأصابته قذيفة قاتلة في حلقه وصرعته في الحال، وشاع خبر مقتله بين جنوده فأحدث الفوضى والاضطراب في صفوفهم وإنسحبوا إلى تيرانا.

وحاول إسكندر بك أن يمنع جنوده من ملاحقتهم، ويكفهم نصرًا وظفرًا أنهم رفعوا الحصار عن كرويا، ولكن هؤلاء الجنود كانوا يكنون غيظًا وحقدًا من طول ما عانوا من وطأة الحصار في المدينة، فاندفعوا وراء العثمانيين، وأحاطوا بهم من كل جانب، ورأى العثمانيين أن بقائهم محصورين في موضعهم سيقضي بهم حتمًا إلى الهلاك، فاستجمعوا قوتهم واقتحموا النطاق المضروب حولهم وشقوا لأنفسهم طريقًا للنجاة، وإن لم يتم لهم ذلك إلا بتضحية غير يسيرة في الأنفس.

وبالرغم من فشل القوات التركية في إخضاع (كرويا) فإن السلطان الفاتح لم يشأ أن يستسلم للهزيمة ويدع الألبانيين إلى الراحة والطمأنينة، فأرسل قوات أخرى لمناوشتهم وجعلهم دائمًا في تخوفٍ وحذر، وأمر بتحصين مدينة البسان وهدم مدينة تشودري التي أنشأها الأسكندر الأكبر بالقرب من درازو على شاطئ البحر.

أما إسكندر بك نفسه فقد أخذ يطوف ببعض المدن ويتعهد شؤون جنده ويتأهب لما قد يأتي به الغد، ووصل في تطوافه إلى مدينة اليسو وهي للبنادقة، حيث دعا إلى عقد اجتماع عام، ولكن حمى عنيفة فاجأته واشتدت عليه وطأتها فشعر بدنو أجله، فدعا إليه رجاله وقواده، وأوصاهم بمواصلة الكفاح والدفاع عن النصرانية والذود عن الحمى، وأوصاهم خيرًا بابنه (چان) وأن يكونوا له الإخلاص والحب والصدق، كما كانوا يفعلون من قبل مع أبيه، ولما كان ابنه هذا لا يزال قاصرًا فقد عهد بالوصاية إليه إلي حليفته جمهورية البندقية، ومات إسكندر بك في ١٤٦٧م، وانتشرت الفوضى في البلاد وأصبح العثمانيون والبندقية ورؤساء القبائل يتنازعون السيطرة والسيادة عليها.

وعانى العثمانيون من جهتهم كثيرًا من ضراوة المعارك في ألبانيا.

فتح أماستريس وسينوب وطرابزون

وتتجه أعين العثمانيين إلى أسيا الصغرى، فتجد مملكة طرابزون وإمبراطورها يوحنا الرابع يفكر في إخراجهم من أسيا الصغرى، ولم يعتبر لما حدث لإمبراطور القسطنطينية من قبل.

وبدأ يوحنا يفاوض الدول المجاورة والصديقة بهدف تشكيل أئتلاف ضد العثمانيين، ووجد في الأمير التركماني الطموح (أوزون حسن) ـ حسن الطويل ـ زعيم آلاق قونيلوا (الخراف البيضاء) وجد فيه خير حليف ونصير، وقد جمعتهما مصلحة مشتركة هي كراهية العثمانيين، وربطت أواصر الصداقة بينهما مصاهرة؛ حيث تزوج أوزون حسن من كاترين ابنة يوحنا .. ونجح يوحنا في استمالة الأمراء المجاورين له، وهم أمراء سينوب والقرمان والكرج وأرمينيا الصغرى الذين جمعهم على اختلاف أجناسهم وعقائدهم، الحقد على الدولة العثمانية[1].

وحاول يوحنا أن يضم إلى هذه القوى الشرقية، قوة اللاتين في الغرب، فأجرى مفاوضات مع البابا من أجل هذه الغاية، غير أن الوفاة أدركته في عام ١٤٥٨م قبل أن يتم مشروعه، واستبد بالحكم بعد أخوه داوود، وكان على صفات أخيه، فواصل جهوده لإتمام تكوين الجبهة المتحدة ضد العثمانيين، وسانده دوق بورغنديا، وأوصى البابا دول الغرب الأخرى بمساعدته[2].

وكانت جنوة فيما تملك من مستعمرات في الشرق مدينة أماستريس في أسيا الصغرى على البحر الأسود في شبه جزيرة القرم، وتعد هاتان المستعمرتان وخاصة الأخيرة منهما من أهم المراكز التجارية لجنوة في الشرق.

---

(١) المصدر السابق (ص٢٣٥).

(٢) «تارخ الدولة العثمانية» محمد فريد بك.

وفي الوقت الذي نمت فيه الدولة العثمانية أصاب جنوة الضعف والوهن، وتوسعت الدولة العثمانية في فتوحاتها، ولما تخوفت جنوة على مستعمراتها في الشرق سلَّمت هذه المستعمرات إلى المؤسسة القوية (بنك القديس جورج)[١]، لتتصرف فيها كما تشاء، وقامت هذه المؤسسة بدور بارز في تأليب القوى ضد الدولة العثمانية بالتنسيق مع إمبراطور طرابزون وبمساندة من البابا الذي اعتبر هذه المواقع الواقعة على البحر الأسود بمثابة مواقع أمامية للنصرانية.

وخططت القوى المتحدة لعملية عسكرية تستند على فتح جبهتين في وقت واحد، جبهة في الغرب، وأُخرى في الشرق، بحيث يقع العثمانيون بين فكي كماشة .. كان السلطان الفاتح يعلم من عيونه وجواسيسه ما يحاك ضده في الخفاء بين إمبراطور طرابزون بالاشتراك مع حكام أماستريس من الدسائس، فقام يواجه هذا الائتلاف الذي اتحد ضده بكل ثبات وعزم.

وبعد مرور عامين من الاتصالات والمشاورات تحرَّك أوزون حسن بإيعاز من يوحنا الرابع إمبراطور طرابزون، فطلب من الفاتح إسقاط الجزية عن إمارته، وتجرأ بأن طالبه بدفع الجزية إليه[٢].

لذلك فقد قرر السلطان الفاتح مواجهة الأعداء، فرفض طلب أوزون حسن، وما أن أنجز عملية فتح بلاد المورة حتى أعدَّ في ربيع عام ١٤٦١م جيشًا بريًا تولى بنفسه قيادته، وأسطولاً بحريًا عهد بقيادته إلى محمود باشا، وأسرع بالزحف نحو أماستريس وفتحها دون مقاومة؛ حيث فاجأ قادتها وأخذها على غرة .. ثم واصل زحفه نحو سينوب الغنية بمناجمها

---

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي.
(٢) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٢٥٩).

ومعادنها؛ حيث كان يخشى أن تقع في أيدي أوزون حسن ويتخذها المتحالفون قاعدة لأعمالهم العسكرية.

عندئد أدرك إسماعيل أنه أمام خطر داهم، وأنه لا قبل له بمواجهة الجيش العثماني فطلب الأمان والتسليم، وذهب إلى خيمة السلطان الذي استقبله بالترحاب وأقطعه أراضي واسعة في جهات: بروسة ويكي شهد وآنية كول، وبذلك دخلت إمارة سينوب في قبضة العثمانيين، ولم يضيع الفاتح وقته، فأمر أسطوله بمواصلة الإبحار إلى طرابزون في حين زحف بجيشه البري نحو أرضروم عن طريق أماسيا لضرب أوزون حسن المتقدم لنجدة حليفة داوود إمبراطور المدينة.

فوجئ أوزون حسن وأصابه الذعر من هذا الظهور السريع وغير المتوقع لمحمد الفاتح، وكانت المفاجأة سببًا في أنه فكر سريعًا بأنه لا قبل له بمفرده أن يقاتل السلطان محمد الفاتح، فجنح للسلم، واشترط محمد الفاتح أن يكف هذا الأمير التركماني عن نصرة إمبراطور طرابزون، وأن يوقف اعتداءاته على مناطق الحدود، وقد قبل أوزون حسن ما عرضه الفاتح وعقد الصلح بينهما.

وترك السلطان محمد الفاتح المنطقة متجهًا إلى طرابزون لفتحها، وكان أسطوله قد ضرب حصارًا بحريًا شديدًا حولها، وكان حاكمها داوود يترقب في قلق شديد وصول الإمدادات والمعونة من حليفة أوزون حسن، ولم يكن على علم بما تم بين السلطان محمد الفاتح وأوزون حسن.

وعند وصول السلطان محمد الفاتح إلى طرابزون من ناحية البر، وقد كان داوود يتوقع مجيئه من البحر، فوجئ داوود وأسقط في يده وارتبكت قيادته وإرادته، مما دفعه إلى الاستسلام والتسليم للسلطان العظيم محمد الفاتح، وسقطت المدينة في يد سلطان الفاتحين محمد الفاتح.

الحرب مع البندقية

أصبحت البندقية منذ نهاية القرن الرابع عشر على درجة عظيمة من القوة في منطقة الشرق بما أنشأته من تجارة واسعة الآفاق ومستعمرات كثيرة ومحطات ومراكز هامة في بحار الشرق ومئات من السفن تنقل المتاجر والأمتعة من مختلف أنحاء العالم وتدر عليها الأرباح الوفيرة.

وبروز البندقية على هذا الوضع المتميز يعود إلى عدم وجود منافس يشكل خطرًا عليها، فغريمتها جنوة ضعيفة وأصابها الوهن، وأشرفت على الاضمحلال، والإمبراطورية البيزنطية كانت تمر في مراحل شيخوختها في حين كانت الدولة العثمانية في بداية نشأتها السياسية، فنظرت إليها البندقية بلا اهتمام ولا مبالاة، بل نظرت إليها بشيء غير قليل من الازدراء والاستخفاف، فكان البنادقة ينظرون إلى السلطان أورخان على أنه رجل بربري جلف لا خطر له ولا اعتبار، ولكن تزايد نمو الدولة العثمانية واتساع فتوحاتها لاسيما بعد استيلائها على كليبولي التي تشرف على الدردنيل الذي يعد من أهم المنافذ التجارية بين الشرق والغرب، كل ذلك حمل جمهورية البندقية المتغطرسة على أن تغير نظرتها إلى هذه الدولة الإسلامية الفتية وتحسب لها ألف حساب.

ولم تكن خشية البنادقة وتخوفهم من الدولة العثمانية؛ لأنها دولة إسلامية، فلم يكن أمر الدين يعني هؤلاء التجار في قليل أو كثير إلا بقدر ما يتصل بتجارتهم التي كانوا يعدونها أساس رخاء البندقية وقوتها وعظمتها، بل لم يكونوا يحجمون عن أي عمل يحقق لهم شيئًا من هذا النفع، ولو كان في ذلك ضرر محقق بالنصرانية وأنها خيانة لها، وإنما كانت الخشية خشية البنادقة من

الدولة العثمانية أن تعرقل تجارتهم أو تقطع سبيل مواصلاتهم، فأخذوا يتوددون إليها ويعقدون معها الاتفاقات والمعاهدات التي تضمن لهم سلامة تجارتهم[1].

ولكن هذه الاتفاقات كانت مصطنعة مؤقتة لا تحتمل الدوام والاستمرار؛ لأن طبيعة الأشياء كانت تأباها، فالدولة العثمانية لا تنفك تمد فتوحاتها في جميع الاتجاهات وتستولي على مواضع جديدة، وجمهورية البندقية من ناحيتها كانت شديد الحرص على الاحتفاظ بمركزها الممتاز في الشرق، بل على المزيد من توسيع تجارتها وتنمية ثروتها حتى تصبح (ملكة الذهب في العالم المسيحي كافة)[2]، وتحقيقًا لهذا الهدف قوَّت البندقية مركزها وسلطانها في اليونان والمورة وبحر الأرخبيل، واستولت على مواقع استراتيجية جديدة فيها.

وجملة القول: أنها حاولت أن تحرم الأتراك من الاستيلاء على كل أرض في الإمبراطورية البيزنطية يلوح أنه من الممكن إنقاذها. وكان أكثر ما تخشاه البندقية هو أن تسقط القسطنطينية هذه المدينة الفريدة بموقعها وأهميتها خصوصا في ذلك العهد في يد العثمانيين بعد أن أحاطوا بها من كل جانب، فكان الصدام بين هاتين الدولتين الطموحتين أمرًا لا مناص منه.

وقد تحقق ذلك حينما اشتبكت السفن البندقية بالسفن العثمانية في الدردنيل ٨١٩هـ/ ١٤١٦م وسحقتها سحقًا، ولم يكن عجيبًا أن يحرز البنادقة مثل هذا النصر الساحق بسهولة؛ فقد كانوا سادة البحر وفرسانه منذ قرون بينما العثمانيون لم يكونوا قد أجادوا تحريك أيديهم بالمجاديف بعد، ولكن كان لهم مجال واسع في البر يعوضون فيه ما يصيبهم في البحر من خسائر.

---

(١) «الفاتح» د/ الرشيدي (ص٢٣٨).

(٢) شارك ديل «البندقية».

وكانت البندقية قد اشترت مـدينة سالونيك ١٤٢٣م من الإمبراطور البيزنطي بخمـسين ألف دوقة، وكان في عزم البندقـية أن تجعل من هذه المدينة السـاحلية الهامة (بندقية جديدة) في الشرق، ولكن تمـض سبع سنوات حتى استولى عليها العثمانيون (٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م)، فتزايدت مخـاوف جمهورية البندقية وتعاظمت، وإذا بهذه الدولة التجارية التي طالما عملت على إضـعاف بيزنطة واقتطاع أجزائها وانتزاع الامتيـازات منها وإهانة أباطرتها، إذا بها الآن تعمل بكل حمـية وحماس لشدِّ أزرها وتقويتـها وجعلها سدًا منـيعًا ضد الأتراك، ونشطت نشاطًا كـبيرًا في الجهود التي بذلتـها بيزنطة للتوحـيد بين الكنيستين الشـرقية والغربية والاسـتعانة بقوات اللاتين في الغرب ضد العثمـانيين اللذين اشتد خطرهم على القسطنطينية على نحو ما فصلنا ذلك من قبل.

وما إن تولى محمد الفاتح عرش السلطنة سنة (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) حتى شيدَّ على الضفة الأوربية من مضيق البوسـفور قعلة روملِلي حصار، وأحكم سيطرته على هذا المضيق، وأمـر بمنع أي سفينة من اجتيـازه إلا بعد تفتيـشها ودفع رسم المرور، ولم يكتـرث القبطان البندقي (أنتـونيوزرو) لأمر الفـاتح واقتـحم المضيق بسفينة فاغـرقتها المدافع المنصوبة على الضفـتين، وكان ذلك نذيرًا بصراع عنيف بين الدولتين، وقد اشتـركت السفن البندقـية التي كانت راسـية في القرن الذهبي حينما حاصر السلطان محمد الفاتح القسطنطينية في الدفاع عن هذه المدينة، كما اشترك نائب جمهورية البندقية في القسطنطينية وجـميع أفراد الجالية البندقية فيها في هذا الدفاع أيضًا.

وحاولت البندقية مع البابا إنقاذ القسطنطينية، فأرسلت إليها مددًا من السفن المجهزة بالجند والعتاد، ولكنها جاءت بعد فوات الأوان، وجاء استيلاء العثمانيين

على القسطنطينية (ضربة قوية جدًا على البندقية) وعمّ فيها البكاء والنحيب، ودعاء الدوق فرانسيسكو فوسكاري مجلس الشيوخ إلى إعلان الحرب فورًا على الدولة العثمانية، ولكن الشيوخ الموقرين آثروا التريث وتدبر الرأي ووزن المصالح التجارية العليا قبل الأخذ بهذا الرأي الخطير.

وأسفرت المناقشات في آخر الأمر عن الموافقة على تكليف بارتموليمبو مارشللو بالذهاب إلى أدرنة لمفاوضة السلطان الفاتح للحصول على أفضل الشروط التي تضمن المصالح الاقتصادية للجمهورية، والاعتذار للسلطان عن الموقف العدائية التي وقفها البنادقة في القسطنطينية واشتراكهم في الدفاع عنها، وقد نجح هذا المندوب في أداء مهمته، فعقد في ٨ إبريل ١٤٥٤م معاهدة سلام ومودة مع الدولة العثمانية ضمنت بها البندقية مصالحها التجارية في الشرق إلى حد كبير، كما منحت بعض إمتيازات إقتصادية جديدة.

ولكن هذا الاتفاق كان كسابقه من الاتفاقات، لم يكن في الواقع سوى هدنة مؤقتة أملتها الظروف القائمة، فقد كان هناك أكثر من ميدان تصطدم فيه هاتان الدولتان الطموحان اللتان تتغالبان على النفوذ والسلطان.

وقد زاد من قلق البندقية وتخوفها عناية السلطان الفاتح واهتمامه بتقوية أسطوله وتحصينه مضيق الدردنيل بعد الفوسفور إحكامًا في مراقبة السفن التي تنتقل بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط. وقد كانت البندقية تعتبر البحار وبخاصة بحار الشرق الميدان الذي يجب أن تنفرد بالسيادة فيه بغير منازع.

وفي سنة (٨٦٤هـ/ ١٤٦٠م) استولى السلطان الفاتح على شبه جزيرة المورة حيث كانت للبندقية مراكز هامة على الشاطئ وتجاور الخصمان بذلك وتواجها

وساد الشعور بأن الصدام بات وشيكًا أو واقع لا محالة، وبالطبع فإن البندقية أخذت تعد لذلك عدتها كما أخذت في نفس الوقت تمدُّ يدها بالمؤونة إلى أعداء الدولة العثمانية، مما زاد الموقف توترًا.

ونشبت الحرب بين الطرفين، وكانت حربًا طويلة قاسية عرفت في التاريخ بالحرب الكبرى، استمرت ستة عشر عامًا (١٤٦٣-١٤٧٩م). ويبدو أن السبب المباشر لهذه الحرب هو إلحاق ملكية البوسنة بالدولة العثمانية.

لكن السبب الحقيقي لهذه الحرب هو الفتح العثماني للقسطنطينية وإغلاق العثمانيين المضائق في وجه سفن البندقية، بالإضافة إلى حيازة العثمانيين على قوة عسكرية واقتصادية لا تسمح لأي دولة أن تنال منهم، وشكّل سلوك العثمانيين الظافرين مصدرًا للقلق[١]، لقد قامت هذه الحرب من أجل المصالح التجارية.

بدأت الحرب بفتح العثمانيين حصن آرغوس[٢]، وتركزت الجولة الأُولى منها في شبه جزيرة المورة، وحقق العثمانيون انتصارات باهرة، ودخلوا مدينة أسبرطة[٣]، ونتيجة للمواجهات الفاشلة في المورة مع الدولة العثمانية . . رأت البندقية أن تستند على فكرة حرب العثمانيين من الشرق والغرب في الوقت نفسه، فراحت تبحث عن حلفاء في منطقة الأناضول الشرقي كما لم تهمل محالفاتها مع الغرب الأوربي.

---

(١) «البندقية جمهورية أرستقراطية» ديل، شارلز (ص١٣٨)، «تاريخ الدولة العثمانية» بيلماز أوزوتونا (جـ١ - ص٥٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) الرشيدي (ص١٧٩-ص٢٨٥).

كان في بلاد الأناضول آنذاك ثلاث إمارات من الأسر التركمانية وهي إمارات القرمانيين وذي القدر التابعتان للسيادة العثمانية، وإمارة رمضان التابعة للمماليك في مصر.

وهكذا تطلعت البندقية إلى إمارة القرمان لتحريضها على مهاجمة العثمانيين، خاصة وأن هذه الإمارة قد أخذت على عاتقها في السابق القيام بمضايقتهم، إلا أنه منذ عام ١٤٦٦م خضعت الإمارة القرمانية للسيطرة العثمانية بعد الضربة التي تلقتها على يد الفاتح الذي دخل قونية وسيطر على لارندا وأجلس ابنه الأمير مصطفى على عرش هذه الإمارة، وبالتالي لم تعد إمارة القرمانيين الحليف الذي يمكن أن يسدد ضربة للقوة العثمانية.

فاتجهت الأنظار نحو مصر، فمن الضروري تحريض المماليك ضد العثمانيين بفعل الخلافات الحدودية بين الطرفين، ولكن مصر لا تقدم على أي عمل مع المسيحيين ضد الدولة الإسلامية، بفعل كون المماليك مسلمين من جهة، ولأن الخلافات ليست بالدرجة التي تجعلها تقدم على دخول حرب واسعة النطاق، بالرغم من أن المماليك كانوا غير مرتاحين من موقف الدولة العثمانية من الإمارات الحدودية بينهما؛ حيث كانوا يرون في تولي الأمير مصطفى عرش الإمارة القرمانية خطرًا يتهددهم في بلاد الشام[1].

في الوقت الذي لم تظهر من جانب السلطان العثماني أية بوادر تشير إلى رغبته في اجتياز الفرات وجبال طوروس، وإنما ركَّز جهوده على أوربا. ونتيجة لهذه المواقف السياسية، تطلعت البندقية إلى إمارة آلاق قونيلوا (الخراف البيضاء) وعقدت آمالها على أوزون حسن الذي أبدى استعدادًا لمهاجمة العثمانيين، وأثبت

---

(١) المصدر السابق (ص٢٨٥) وما بعدها.

هذا الأمير التركماني أنَّه يملك قوة عسكرية هائلة، فهو يسيطر على الأناضول الشرقية ويتحرق غيظًا من السلطان العثماني الذي قضى على إمارة طرابزون التي تشدَّه إليها روابط عائلية[١].

ويقول بيلماز أوزتونا[٢]: على كل الأحوال، فإنه لم تظهر على سياسة (التركي الكبير) - يقصد الفاتح - أية بوادر تشير إلي رغبته في اجتياز الفرات وجبال طوروس، وإنما كان كل أمله في أوربا. وفي ضوء ذلك كله، نجد أن الدولة الوحيدة ذات المقدرة العسكرية التي يمكنها أن تضرب التركي الكبير (محمد الفاتح) من الشرق هي أقويونلو (أصحاب الخراف البيض) الإمارة التركمانية المتضخمة (إيران حاليًا).

ويقول أوزوتونا: كان أوزون حسن بك الذي أظهر في السنوات الأخيرة تقدمًا كبيرًا جدًا، وأثبت قدرة عسكرية هائلة؛ حتى أطلقوا عليه في أوربا (كوجك ترك) - التركي الصغير - مستعدًا للقيام بهذه المهمة، فهو يسيطر على الأناضول الشرقية ويتميز غيظًا من فاتح (محمد الفاتح) الذي قوَّض إمبراطورية طرابزون (التي يرتبط بها بروابط القرابة)، والذي قضى على قره مان وأخل بالتوازن، ولو أمكن إعطاء الدور الذي لعبه تيمور إلى أوزون حسن، لكسبت أوربا الحرب من الناحية الاستراتيجية، وحتى إن لم يتيسر لها دحر القدرة العثمانية، فإنه سيكون في إمكانها حصرها في حدود المعقول.

استغرق تجهيز الاتفاق ضد الدولة العثمانية وقتًا طويلاً، وتم تدبيره بأناة، وتم التفاهم في النهاية علي خطة التقسيم التي تحصل المجر بموجبها على حصة

---

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» بيلماز أوزتونا (جـ١ - ص١٥٥).
(٢) المصدر نفسه (ص١٥٥).

الأسد؛ لتخصيصها أكبر قوة عسكرية، فلها بلاد الصرب، بلغاريا، بوسنة ورومانيا (أفلاق)، ويحصل البنادقة كذلك على حصة كبيرة؛ إذ أنهم وافقوا على تحمل القسم الأكبر من النفقات المالية علاوة على تخصيصهم لأسطول البندقية القوي، وتحصل (الجمهورية المهيبة) على مورا، أتيكا، تيساليا، أبير، ويعاد إحياء الإمبراطورية البيزنطية، علي أن تنحصر حدودها في تراقيا، ولا تعطي حدودًا واسعة لكونها أرثوذكسية، وتكون بمثابة الدولة العازلة.

وبذلك يتم إخراج الأتراك من أوربا بشكل كامل. أما ما هي الأراضي التي ستبقى لدى الدولة العثمانية في الأناضول، فإن ذلك شيء يعود إلى آقويونلو (جوجوك ترك) أوزون حسن الحليف الكبير للاتفاق، ولا شأن للدول الأوربية بذلك، ومن المؤكد أن أوزون حسن سيعيد دولة قره مان وطرابزون تحت حمايته، وسيضم الأراضي العثمانية في الأناضول الوسطى كذلك، وستبقى الدولة العثمانية منحصرة بين البحر الأسود - مرمرة - إيجه - البحر الأبيض، كما كانت في السابق، ولن يسمح باقترابها من الأناضول الوسطى خصوصًا، ويمكنها أن تعيش في غرب الأناضول، شرط تحسين علاقتها مع آقويونلو!!

ويضيف بيلماز أوزتونا في توصيف الموقف فيقول: كان العنصر الأساسي في تطبيق خطة خيالية كهذه، هو إجبار الدولة العثمانية على دخول الحرب بدون حليف (وهذا ما حدث .. لم تتمكن من إتخاذ أي حليف) ومن حيث المنطق، لو أن ما يقرب من ٣٠ دولة قامت بتطبيق هذه الخطة بتصميم، فإن النجاح سوف يكون مضمونًا، وسوف تتعرض الدولة العثمانية للعنت ولمصاعب كثيرة وستتردى اقتصاديًا وعسكريًا كلما طالت الحرب، وستكون مرغمة في النهاية على وقف الحرب، وبالفعل فإن محمد الفاتح لما طالت

الحرب، وضع اليد باسم الجيش على إيرادات الأوقاف غير مبال بعدم الارتياح ولا بالانتقادات الكبيرة التي تعرض لها.

ولكي يتحقق الانتصار في حرب كهذه، فإنه لا يكفي استحواذ الجيش على الأولوية في العالم، ولا يكفي الأسطول الذي أصبح على يد فاتح متفوقًا على الأسطول البندقي، وجهزه بمدافع ممتازة وجعله الأسطول الأول في العالم، ولكن الأمر يحتاج إلى سياسة مكيافيلية وجهنمية دقيقة جدًا، ولقد رضى فاتح بالحرب؛ لأنه كان سوف يتمكن من السيطرة على هذا العنصر كذلك، وقد كان بإمكانه الحيلولة دون وقوع الحرب لو أنه أعطى بوسنة إلى المجر وأعاد استقلال دولتي قره مان وطرابزون وجعلهما دولاً عازلة بينه وبين آقويونلو وفتح البحر الأسود للبنادقة، لكنه لو كان فعل ذلك؛ فهل تقف الترضيات عند هذا الحد؟ وهل يمكن لدولة تقدم مثل هذه الترضيات أن تثبت دعواها في كونها الدولة الأولى في العالم.

تعرضت الدولة الصغيرة دلقادر لضغوط شديدة في حرب العمالقة هذه، ولم يخضع التركمان المرعشيين لهذا الضغط، ولم يتركوا أبدًا تبعيتهم للعثمانية ورفضوا كافة الضغوط التي مارستها الدولتان ذوات القدرات العظيمة كمصر (المماليك) وإيران (آقويونلو - أي أصحاب الخراف البيض -) بشأن انفصالهم عن العثمانية.

من ناحية أخرى، فإن القاهرة ما كانت لترضى بالتحرك ضد بني عثمان، صحيح أن القاهرة كانت ترى في إجلاس بني عثمان ابنهم المتوسط على عرش قره مان، وفي صاحب عرش مراش التابع المخلص للدولة العثمانية، خطرًا يهددهم في سوريا، ولكن كل ذلك ما كان ليجعلهم يتحركون ضد بني عثمان

الغزاة العظام، وبخاصة عندما تكون هذه الحركة بالاتفاق مع أوربا، لقد كانوا يرون أن ذلك لا يليق بهم[1].

إن (مصر - سوريا) كانت تسر لانتصارات العثمانية في أوربا. في ١٤٥٦ احتلفت مصر وسوريا ٣ أيام بليالهما عند التأكد من عدم صحة خبر موت محمد الفاتح بمرض الطاعون، وقد كانت إشاعة، ولم تكن (مصر - سوريا) مستعدة للإقدام على الحرب مع الدولة العثمانية بسبب مسألة قره مان ودلقادر.

أما آراء محمد الفاتح بالنسبة للدولة المملوكية وسلاطينها، فلم تكن طيبة على أي حال من الأحوال رغم إخفائها بدقة ومهارة، كان السلاطين المماليك بالنسبة لفاتح (عبيدًا شركسيين) لا ينحدرون مثله من أوغزخان، وإضافة إلى ذلك فإن هذه الدولة تحتفظ بالخلافة، وتسيطر على ٣ مدن إسلامية مقدسة هي مكة والمدينة والقدس، وبفضل هذه العناصر المعنوية، كانت تدعي بأنها دولة الإسلام العظمى، من الجائز أنها كانت كذلك في وقت ما، لكن تركيا كانت قد وصلت إلى أوربا الوسطى بعد أن قدمت ٤ ملايين من الشهداء خلال ٤ قرون مبتدئة من ملاذكرت ١٠٧١. كان فاتح هو الخلف الشرعي لبني سلجوق (هذا هو الرأي الرسمي للدولة العثمانية منذ بدايتها وحتى اضمحلالها) وبني سلجوق هم أسياد (الأتابكة الزنكيين) الأيوبيين الذي هم أسياد المماليك.

كان العثمانيون قد تقلدوا سيف الإسلام، أما المماليك فكانوا يتمتعون بفضل الإسلام[2].

---

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» يلماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٥٦).
(٢) المصدر السابق (ص١٥٧).

وبطبيعة الحال لم تكن القاهرة على علم بمثل هذه الأفكار الخطيرة التي لدى العثمانيين عنهم، واستمرت القاهرة في محبتها للعثمانية حتى النهاية وعلم فاتح (محمد الفاتح) وقد كان يملك أقوى شبكة للاستخبارات في العالم وله عيون وأرصاد في كل منطقة من أوربا، اجراءات الاتفاق الذي رتب ضده، خطوة بخطوة، فسبقهم في التحرك.

بدأ في الحرب فعلاً يوم ٣ نيسان ١٤٦٣م، وبناء على ذلك أعلنت البندقية الحرب على تركية في ٢٨ تموز والمجر في ٣٠ تموز. سحق الوزير الأعظم محمود باشا، المجر في الحرب الميدانية، وتمكن ملك المجر من النجاة بأعجوبة من الموت.

وغادر البابا بيوس الثاني روما (١٨/ ٦/ ١٤٦٤) لقيادة الجيش الصليبي بنفسه، ولكنه مات في الطريق، وتحرك كذلك (دوج) رئيس جمهورية البندقية من البندقية بالسفينة (٢/ ٨ ١٤٦٤ تجاه تركيا، ولكنه رجع إلى البندقية عند سماعه خبر وفاة البابا، وقد منح محمد الفاتح دولة فلورنسا (توسكانا) امتيازات تجارية كبيرة، وحسن أحوالها المالية بشكل واسع، وذلك بغرض إضعاف القدرة المالية والاقتصادية للبندقية.

وبينما كانت تتابع الدول الأوربية، والدول الأسيوية كإيران (أصبح الخرفان البيض) ملكية قبرص (كاثوليكية) في إعلان الحرب على تركية، كان فاتح معينًا بشكل خاص بالبندقية، ذلك أن فاتح لم يكتف بالنسبة للبندقية بالتدابير المتعددة التي اتخذها لتدمير الجمهورية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية، بل إنه قام معها بمناورات سياسية معقدة جدًا، فقد فتح معها الباب لمفاوضات الصلح (وهذا أمر لا يجري والحرب دائرة)، ولكن شروط الصلح المغرية بهرت عيون البنادقة،

فأوقفوا الحرب مدة من الزمن، استطاع فاتح (محمد الفاتح) خلالها القضاء على أعـدائه الأخرين، ثـم أعلن بعد ذلك أن المـفاوضـات دخلت في طريق مـغلق وبدأت الحرب مع الـبندقية مـجددًا . . لقـد ابتلعت البندقيـة ذات الدبلوماسـية الراقية، هذا الطعم مرات عديدة! .

أضعـفت الحملات الواسـعة النطاق التي بدأت في ١٤٦٩، البندقيـة بدرجة كبيـرة وقد قامت البندقـية حتى تموز ١٤٧٩ فقط، بتـرتيب ١٤ مؤامرة لاغتـيال السلطان محـمد الفاتح، ولم توفق في أي منها، سـار محمد الفـاتح في صيف ١٤٧٠ بجيشه في إحـدى حملاته الكبرى وهي الحملة الهمـايونية ٢١، وحملة آغريبـوز تجاه البندقية، وقـد كانت هذه الجزيرة - وهي أكـبر جزر إيجه - كـأنها ملتصـقة بشـبه جـزيرة آتيكانا (تبلغ مسـاحتـها ٢٩٧ كم٢) بحوزة البنـادقة منذ ١٢١٠، ولمدة ٢٦٠ سنة وقبلها كانت بحوزة البيزنط.

دخل الأسطول الهـمايوني المكون من ١٠٠ سفـينة حربيـة شراعيـة كبـيرة (كـاليون)، و٢٠٠ سـفـينة نقل إلى بوغـاز آغـزيبوز فـي ١٤٧٠، أما الجـيش الهمايوني (الإمبـراطوري) فقد دخل إلى تيساليا من ترمـوبيل، وانتقل منها إلى آتيكا وغيرها من الجزر، ووصل إلى إمارة رمضان فحقق بذلك سيطرة تامة على سواحل البحر الأبيض المتوسط وأضحت الشواطئ الإيطالية مفتوحة أمامه[١].

كانت خسارة البندقـية بأكرينوز جسيمه، لكنها حـاولت استردادها بالقوة، ولما فشلت في ذلك حاولت استـردادها بالمال، ولكن السلطان رفض ردها إليها بأي ثمن[٢].

(١) المصدر السابق.

(٢) «محمد الفاتح» د/ الرشيدي (ص٣٠٢).

والواقع أن البندقيـة لم تركن إلي الهـدوء بعـد الضربة الـتي تلقتـهـا في الكريبوز، وأجرت مباحـثات دبلوماسية مع القوى الأوربية لتشـكيل جبهة أخرى ضد العثمانيين، ونسَّقت في الوقت نفسه مع أوزون حـسن للقيام بحملة مشتركة وفتح جبهتين معًا، جبهة في الشرق وأُخرى في الغرب.

وفعـلاً تمركز أسطول بندقي في عـام ١٤٧٣ في ميناء لارنكا وأخـذ يقصف القلاع التركـية المنتشرة في البحر الأبيض المتـوسط، إلا أنه لم يتمكن من إحراز أي نصر، فانسحب من المنطقة.

وتحرك أوزون حسن في الوقت نفسه من قلعة (خربترت) إلى أرزبخان وهو يعلم أن اللقـاء سيكون عنـيفًـا وفاصـلاً، وأرسل في غضـون ذلك إلى ملك البندقيـة وإمبراطور ألمانيا وملك المجـر يعلمهم بخروجه ويحـثهم على الزحف باتجاه الأراضي العـثمـانية، ولما علم السلطان بتـحرك أوزون حـسن خرج إلى سيراس للتصدي له، والتقى الجمـعان في مرتفعات أوتلق بلي على بعد أربعين كم شمالي شرقي أرزبخان في الثاني عشـر من شهر آب، ودارت بينهما موقعة قاسيـة دامت عدة ساعات، وأسـفرت عن انتصار واضح للعثـمانيين، واضطر أوزون حسن إلى الفرار[١].

كانت نتائج هذه المعركة هائلة بالنسبة للسلطان مـحمد الفاتح، فمن نتائجها أن أعاد السلطان مـحمـد الفاتح سيطرته على طرابـزون وإمارة القرمـان بعد أن سيطر عليهما (أوزون حسن) لفـترة، ولكن أوزون لـم يفقد في هذه المعركة بلادًا ذات قيـمة، وإن كانت هزيمتـه بعيدة الأثر من الـوجهة المعنوية، وقـد كتب إلى

(١) انظر: «تاريخ الدولة العثمانية» أوزتونا (جـ١ ـ ص١٦٣-ص١٦٦).

البندقية أنه سيعاود الهجوم، ولكنه شُغِلَ بإخماد الفتنة التي أشعلها ضده كل من ابنه أوغورلي محمد في عام ١٤٧٥م وابن أخيه أويس، كما عانت بلاده من عدو خطر هو المرض، إذ فتك مرض الطاعون بعدد كبير من عساكره فاضمحلت قوته وتلاشت[١].

واكتشف البنادقة أنهم أخطأوا في اعتمادهم على أوزون حسن، واتجه السلطان محمد الفاتح بعد انتصاره على الأمير التركماني نحو الجبهة الغربية، فاجتازت جيوشه نهر الدانوب وأغارت على الأراضي المجرية، وفي الوقت نفسه قام العثمانيون بحملات ناجحة على ممتلكات البندقية في الشمال الغربي خاصة في ألبانيا فهاجموا إشقودرة واستولوا على الفريول الواقع إلى الشمال من الخليج في رأس البحر الأدرياتيكي، وخربوا سهل البندقية والجانب الشرقي لإيطاليا ودخلوا النمسا وفتحو زغرب[٢].

واضطرت البندقية تحت ضغط الأحداث العسكرية التي أرهقتها من جهة ووفاة حليفها السابق أوزون حسن في عام ١٤٧٨م من جهة أخرى، إلى الدخول في مفاوضات مع الدولة العثمانية بشأن الصلح، ووافقت على الشروط العثمانية الصعبة في معاهدة استانبول، وانسحبت من الحرب في الخامس والعشرين من كانون الثاني عام ١٤٧٩م، وتضمنت شروط الصلح ما يلي:

١ - تدفع البندقية غرامة حربية مقدارها مائة ألف دوقا.

٢ - تدفع البندقية جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوقا.

---

(١) الرشيدي (ص٣١٦-٣١٧).

(٢) المصدر السابق (ص٣٣٤-ص٣٣٦).

٣ ـ تنسحب البندقية من مدينة كرويا عاصمة إسكندر بك، وتعيد إلى العثمانيين جزيرة ليمنوس وجزءًا من المورة وجميع الأماكن التي استولت عليها منذ بداية الحرب. كما تتخلى عن أرغوس وكامل ألبانيا باستثناء بضع مواقع على الساحل.

٤ ـ يمنح السلطان العثماني البنادقة حرية التجارة في جميع أرجاء الدولة العثمانية، وأن يكون لهم قنصل في استانبول يشرف على شئونهم وينظر في قضاياهم المدنية[1].

وتمكن السلطان من فتح اشقودرة صلحًا في وقت لاحق مقابل بعض الإمتيازات التجارية، وبهذا الصلح تكون الدولة العثمانية قد سيطرت على ألبانيا والمورة. وتحققت إحدى أماني السلطان محمد الفاتح، وهي خلع البنادقة من قواعدهم في البلقان، وقد ذكر بيلماز أوزتونا تقنيات الفاتح في الحرب، فقال: «وقد استعجل محمد الفاتح في حصار اشكودرا، بالونات لا تحترق وصواريخ حرق و(١١) مدفعًا ضخمًا جدًا، وصواريخ طيارة تنفجر في المكان الذي تلمسه أو تمسه»[2].

ونتبين من هذا الوصف للأسلحة الحديثة المتطورة أن الصناعة العسكرية في عهد السلطان محمد الفاتح كانت متقدمة جدًا، فها هو يستخدم بالونات لا تحترق وصواريخ حريق ـ مثل قنابل النابالم الذي نسمع عنها في عصرنا وبعد ستمائة سنة من عصر محمد الفاتح وصواريخ تحمل متفجرات أيضًا ـ ومن ذلك نتبين مدى التقدم في دولة الفاتح.

---

(١) «البندقية» ديل شارلز (ص١٤٠).

(٢) «تاريخ الدولة العثمانية» بيلماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٦٨).

فتح بلاد القرم في ١٤٧٥/٦/١

إن إمارة القرم، هي أهم الدول التي ظهرت على أثر تجزئة أوربا الشرقية التركية. وقد لعبت القرم أهم دور سياسي بين هذه الدول التي انحدرت من السلالات الملكية التي تأتي على رأسها سلالة جوجي أوسلو من نسل أولاد جنكيز خان الرابع وهو جوجي خان[١].

وقد كانت هذه البلاد مع روسيا الشرقية، وكافة البلاد الواقعة شمال البحر الأسود بحكميها منذ أيام جنكيز خان وأمراء المغول الذين اعتنقوا الدين الإسلامي قبل أن يغزو تيمورلنك المنطقة[٢].

كانت هذه الدولة التي تأسست في شبه جزيرة القرم تشمل بشكل واسع أوكرانيا الحالية، وتمتد نحو قفقاسيا الشمالية ونحو روسيا، كانت توجد على سواحل قرم عدَّة قلاع - موانئ جنوية - وكانت تجارة البحر الأسود حتى فتح استانبول تقريبًا تحت سيطرة جمهورية جنوة التي انتهزت فرصة ضعف القرم واستولت على ثغورها (أزوش وكفه ومنكب).

وفي العهد العثماني أصبحت جمهورية جنوة في وضع حرج للغاية عند غلق السلطان محمد الفاتح المضايق، وأخذه منطقة غلطة في استانبول من حوزة الجنويين، وبرغم أن جمهورية جنوة من عداد الدول العظمى، إلا أنها اضطرت إلي دفع أجور المرور إلى الدولة العثمانية عند مرورها من المضايق لنقل البضائع

---

(١) أوزتونا (جـ١ - ص١٦٩).
(٢) صولاق زادة (ص٢٥٢).

بين أوربا ومستعمراتها في شبه جزيرة القرم، وكان السلطان محمد الفاتح يخلق المصاعب للجنويين بسبب عدم استحسانه علاقة دول أوربية بالبحر الأسود.

وكان السلطان محمد الفاتح قد أرسل أسطولاً إلى القرم في تموز ١٤٥٤م بعد فتح القسطنطينية بعدة أشهر، وأجبر الميناء الجنوي الرئيس في القرم على دفع خراج سنوي.

وكانت القرم كبيرة المساحة، فقد بلغت مساحتها (٢٦٠٠٠ كم٢) تستند بدرجة كبيرة في وجودها على مستعمراتها في الشمال، وكان أكبر أعدائها الإمارة الكبرى لروسيا في الشمال، وبولونيا في الشمال الغربي، وكان في إمكان القرم التي تمتد على أراض واسعة أن تجهز إذا اقتضت الضرورة ٢٠٠ ألف فارس (خيَّال)[1].

وكان هؤلاء الجنود يحاربون على النمط الجنكيزي (جنكيز خان) وكانوا مخيفين رغم أنهم لم يجددوا من أساليبهم التي كانوا عليها في القرون الوسطى، وكانت (باغجة سراي) مدينة ملك القرم تبعد عن موسكو مسافة مستقيمة ١٢٦٠كم، وعن وارسو (١٢٨٠كم)، وعن فينيا (١٢٧٠كم)، لكنها تبعد عن استانبول (٦٠٠كم)، وعن سينوب (٣٣٠كم)، وقد حدث أن تعرضت مصالح الجنويين للمخاطر في بلاد القرم بسبب ذلك النمو المُطَّرِدْ للدولة العثمانية، وقد عزم السلطان محمد الفاتح على فتح هذه البلاد لسببين هما:

١ ـ طرد الجنويين منها إذ أن بقاء قوة مسيحية فيها سيشكل مصدر تهديد دائم لدولته.

---

(١) بيلماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٧٠).

(٢) المصدر السابق.



٢ - تحويل التجار إلى القسطنطينية؛ لتمويلها بالغلال والحبوب والأخشاب وساعدت الظروف السياسية العثمانيين في السيطرة على بلاد القرم عندما استنجد بهم زعماء المسلمين فيها لمساعدتهم من عسف الخان وهيمنة الجنويين[١].

فعهد السلطان محمد الفاتح إلى الصدر الأعظم أحمد باشا بالقيام بتنفيذ هذه المهمة، وزوّده بأسطول بحري مؤلف من ثلاثمائة سفينة رسا قبالة - كفه - في الأول من خريران عام ١٤٧٥، ثم استولى على الميناء والمواني والثغور الأخرى مثل السوداك ومنكب وآزوف. وبذلك يكون العثمانيون قد قضوا نهائيًا على الوجود الجنوي في القرم وأضحت شواطئ هذا المنطقة تابعة للدولة العثمانية، ويُعتبر فتح بلاد القرم من أهم فتوحات السلطان محمد الفاتح بعد القسطنطينية لما كان لهذه البلاد من وفرة الثروة والحصون المنيعة ومن ثم سميت بـ (القسطنطينية الصغرى).

وقد وافق خان القرم على الخضوع للدولة العثمانية ودفع الجزية، ونص الاتفاق بين الطرفين على أن يعين السلطان أميرًا على البلاد يكون من نسل جنكيز خان، ويُذكر اسمه في الخطبة بعد الخليفة والسلطان العثماني كما يسمح بطبع اسمه بعد اسم السلطان على قِطع النقود التي يَسُكُّها الخان (الملك)[٢].

وأسس العثمانيون لواء فن (كفه) لا علاقة له بإمارة القرم[٣]. فاكتسب الحكم العثماني بذلك صفته القطعية في البحر الأسود. ودخل هذا البحر تحت سيادة جيش الدولة العثمانية ومحمد الفاتح.

---

(١) «تاج التواريخ» سعد الدين (جـ١ - ص٥٥٥).
(٢) المصدر السابق (ص٥٥٦، ص٥٥٧).
(٣) أوزتونا (جـ١ - ص ١٧١).

فتح جنوب إيطاليا وحصار جزيرة رودس

اتجه السلطان محمد الفاتح بعد عقد الصلح مع النبادقة نحو جزر اليونان الواقعة بين اليونان وإيطاليا في محاولة منه للسيطرة عليها والتمدد نحو إيطاليا، وتمكن في عام ١٤٨٠ من فتح زنطا وكورفوا وسان موري وكنالونيا، فأصبح الطريق إلى الجنوب الإيطالي ممهدًا ومفتوحًا أمام السلطان محمد الفاتح.

وكان فتح هذه البلاد كما ذكرنا هدفًا أساسيًا للسلطان محمد الفاتح والسلاطين آل عثمان منذ أن وضعوا أقدامهم في أوربا الشرقية، ولما تهيأت الظروف في عهد محمد الفاتح تهيأت الظروف لتحقيق ذلك. ساد السلام والهدوء جميع الحدود الشرقية للدولة العثمانية، وأصبح في مقدور القيادة العثمانية أن توجه جهدها كله نحو الغرب.

واستغل محمد الفاتح الفرصة من أن نابولي لم تحترم معاهدة التحالف المبرمة بينها وبين الفاتح إذ أرسلت بعض سفنها لمساعدة رودس أثناء حصار العثمانيين للجزيرة، يضاف إلى ذلك فقد كانت إيطاليا مقطعة الأوصال بفعل الصراعات الداخلية بين دولها[1].

وأرسل الفاتح جيشًا بقيادة الوزير أحمد باشا نزل أفراده في الثامن والعشرين من تموز في (أترانتو) ففتحوها في الحادي عشر من آب ثم راحوا يشنون الغارات على المواقع الداخلية. وأرسل السلطان في الوقت نفسه أسطولاً بحريًا آخر بقيادة مسيح باشا لفتح جزيرة رودس وكانت مركزًا لفرسان القديس

---

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي.

يوحنا حيث رأى في وجود هذه الجزيرة المحصنة المنيعة على بعد أميال فقط من أسيا الصغرى تهديدًا خطيرًا لدولته(١).

ورسا الأسطول العثماني في خليج تريااندا في شمال غربي الجزيرة، حيث تمكن الجنود من النزول إلى البر، واستولوا على المرتفعات المطلة على الشاطئ(٢).

ثم راحت القوات العثمانية تطلق مدفعيتها على قلعة القديس نيقولا التي كانت تتحكم بمداخل الميناء وتعتبر مفتاح المدينة(٣).

أعقب ذلك قيام هذه القوات بعدَّة هجمات على القلعة إلا أنها باءت بالفشل؛ حيث جوبهت بمقاومة مستميته من قبل سكان الجزيرة الذين تمكنوا من إحباط جميع المحاولات العثمانية لاقتحامها، واضطر مسيح باشا أخيرًا إلي العودة إلى استانبول يجر ذيول الخيبة، وكان جزاؤه أن عزله السلطان من منصبه وأبعده إلى غاليبولي(٤).

ارتعد أمراء إيطاليا من شدة الخوف واستحوذ الرعب على البابا (سيكست الرابع) نتيجة الهجمات العثمانية على إيطاليا ورودس، ولاح له أن روما ستسقط في أيدي العثمانيين كما سقطت القسطنطينية، فدعا امراء إيطاليا وأوربا إلى التهادن وتناسي الخلافات والاتحاد في مواجهة العثمانيين، وضرب المثل بنفسه في تناسي الأحقاد فهادن أعداءه الفلورنسيين وصالحهم(٥).

---

(١) د/ يوسف العشي «الخلافة العثمانية» صولاق زاده (ص٦٤).
(٢) «الفاتح» الرشيدي (ص٣٥٩).
(٣) المصدر نفسه (ص٣٦٠).
(٤) «تاج التواريخ» سعد الدين (جـ١ ـ ص٥٧٥).
(٥) «محمد الفاتح» د/ الرشيدي (ص٣٦٩- ٣٧٠).

الفاتح .. الشخصية والإنجازات

لعل فتح القسطنطينية هو العمل الهام في حياة محمد الفاتح؛ لأن هذا الفتح كان الرسول ﷺ قد بشَّر به وأثنى على أميره في الحديث الشريف: «**لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**»[١].

ويعد محمد الفاتح من الشخصيات التاريخية التي نالت ثناء المؤرخين العرب من شعرائهم الكثير، فمن المؤرخين نجد السخاوي يقول: إن السلطان محمد الفاتح كان ملكًا عظيمًا، اقتضى أثر أبيه في المثابرة على دفع الفرنج، بحيث فاقه. ومع وصفه بمزاحمة العلماء ورغبة في لقائهم، وتعظيم من يرد عليه منهم، ومن أمثلة الشعراء العرب الذين امتدحوا الفاتح الشعر أحمد منير، الذي يقول عنه:

أعظم لِسلطانٍ يُوطِّدُ حكمَهُ ... حقٌّ يزين عهده ويُرَصِّعُ

لا يَستَعِزُّ بعُزْوَةٍ تُرْكِيَّةٍ ... لكن بحبلِ الله إذْ لا يقطَعُ

وفي الجانب التركي يصف المؤرخ التركي علي عمت بركي، يصف الفاتح ويقول: كم كان عظيمًا، وكم كان عادلاً رحيمًا، فيه رقة وشفقة[٢]، أما المؤرخ التركي المشهور أحمد رفيق، فيقول عن السلطان الفاتح وعن العثمانيين: «كانت الغاية المنشودة لسلاطيننا - يعني سلاطين آل عثمان الأول خاصته - أن يخدموا الإسلام بسيوفهم، وقد كانت الأحاديث النبوية الواردة في فضل الجهاد، والمثوبة الموعود بها المجاهدون، حفزتهم إلى الجهاد، وكانوا في غزواتهم وحروبهم

---

(١) سبقت الإشارة إلى ضعف الحديث، رغم أن بشارة الفتح ثابتة قطعًا.

(٢) «العثمانيون والحضارة» د/ محمد حرب (ص٨١).

يرعون دين أعدائهم ويصونون أزواجهم وأموالهم وأعراضهم وللسلطان محمد الفاتح قصب السبق في هذا المضمار»[١].

وكان الفاتح عالمًا يحب العلم ويجيد عدة لغات بجانب لغته التركية، فقد كان يجيد العربية والفارسية واليونانية بجانب اللغة العبرية. وكان الفاتح رجلاً طويل القامة دروي الوجه، ممتلئ الوجنتين، مفتول العضلات شبه منقاري الأنف، وكان قائدًا بارزًا وإداريًا حقيقيًا، كاتمًا للسرِّ، لم يبح بأسرار الدولة حتى ولا لأصدقائه المقرَّبين، بإستثناء ما تقتضيه الضرورة، كما كان صبورًا على المصاعب، جسورًا أمام الأزمات، منضبط النفس قوي العزيمة، أمضى معظم حياته في الجهاد والكفاح الدؤوب والحركة الدائمة. دمَّر بيزنطة وفتح القسطنطينية، وحوَّل كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد[٢].

وفي خلال الثلاثين سنة التي أمضاها في الحكم، قاد الجيوش شخصيًا في خمسة وعشرين حملة، ووسَّع حدود الدولة العثمانية من رقعة من الأرض مساحتها ٦٠٠ ألف كم٢ في بداية حكمه إلى رقعة مساحتها ٢,٢١٤,٠٠٠ كم٢.

وفي عهد محمد الفاتح، تحقق إقامة المزيد من الأبنية التي تجلت فيها روعة الفن المعماري، كما أنجز بناء كلية الفاتح بمعاهدها المختلفة، وهي ما يعرف اليوم بجامعة استانبول، وأسس الكثير من المدارس الشرعية الإسلامية، ليس في أستانبول فقط، بل في باقي المدن العثمانية، واكتشف في عهده قبر الصحابي الجليل: (أبي أيوب الأنصاري ﷺ) على مقربة من أسوار القسطنطينية.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) د/ علي مون «تاريخ الدولة العثمانية» (ص٤١).

وكان الفاتح مسلمًا ملتزمًا بأحكام الشريعة الإسلامية، تقيًا ورعًا، وعالمًا محبًا للعلماء ومشجعًا للعلوم.

وكان محمد الفاتح يحمل في نفسه مكارم الأخلاق، ومما يدل على مكارم الأخلاق التي تمتع بها هذا السلطان أنه أبقى النصارى، خلاف ما أبقاه لهم من الكنائس والصوامع، كنيسة وحارة بتمامها، مراعاة لمهندس معماري يدعى (كريستبول) كان استعمله السلطان محمد الفاتح في بناء المباني، وأعطاه تلك الحارة بتمامها، لتكون ملكًا له ولذريته من بعده[١].

وكان الفاتح شاعرًا وأديبًا، ومشجعًا لحركة الترجمة من العربية إلى التركية، ومحبذًا للغة العربية التي كان يجيدها إجادة تامة، فضلاً عن التركية والفارسية، وكان يعرف اليونانية واللاتينية والعبرية.

تقول كتب الأدب العربي أنه كان على موهبة ودراسة في العروض والقافية، وفي شعره جمال لا يحتمل المراء؛ لأن معناه يسبق لفظه، وقد نشر المستشرق الألماني (ج. جاكوب) أشعاره في برلين عام ١٩٠٤م، بعد أن استخرجها من مجموعة محفوظة في مقر الكتاب في جامعة أوبسا الملكية، وقام التركي (كمال أديب) بنشر أشعاره في (أنقرة عام ١٩٤٦)، مع تصويرها من مخطوط تركي، بخط تعليق موجود في مكتبة (ملّت) في إستانبول[٢].

وتقول موسوعة اللغة التركية وآدابها في معرفة الفاتح بلغات عصره وثقافته: إن محمد الفاتح كان على معرفة واسعة بالآداب والرياضات والفلك والكيمياء، وكان عالمًا بالفلسفة الإسلامية محيطًا بالفلسفة اليونانية.

---

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» إسماعيل سرهتك (ص٤٥).
(٢) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» محمد حرب.



الفاتح والشعر

ذكر الدكتور/ محمد حرب عن عاشق حلبي في كتابه (مشاهد الشعراء): إن السلطان محمد الفاتح كان أدل من رتَّب - من بين السلاطين العثمانيين - ديوانًا فيه أجمل الغزليات والقصائد والقطع الشعرية، ومعنى هذا أن الفاتح كان أول شاعر في البيت العثماني، والشعراء في هذا البيت كثيرون ما بين سلطان وأمير.

ولغة الفاتح الشاعر تعتمد على اللغة العثمانية الكتابية التي أخذت تكاملها في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان حريصًا في شعره على الجمال الخارجي للصراع، وهو وحدة القصيدة العثمانية - وسلامته - وامتاز الفاتح الشاعر باستخدام المضمون والمفهوم استخدامًا ناجحًا، ويكثر في أسلوبه استخدام المحسنات اللفظية، وكان هذا من سمات الشعر العثماني في عصر الفاتح.

إلا أن خصوصيات الفاتح الشاعر تتجلى فيما يقوله الناقد الأدبي التركي وصفي ماهر: يمكننا اعتبار الفاتح الشاعر واحدًا من أهم الشعراء في عصره، فلغته وتعبيراته قوية بالدرجة اللازمة للقوة، وإن كان ديوان الفاتح صغيرًا إلا أن ما فيه من أشعار يكسب الفاتح صفة الشاعرية ومضمونات كلاسيكية قوية تعلو على التقليد والاتباع[1].

---

(١) المصدر السابق (ص٢٧٤).

ديوان الفاتح

ديوان الفاتح يُسمى: (ديوان عوني)، وعوني هو الاسم الشعري الذي اتخذه الفاتح في نظمه لأشعاره، هذا الاسم الشعري يُسمى المخلَصْ عند العثمانيين، وديوان عوني أي ديوان السلطان محمد الفاتح، كان مجهولاً حتى اشتغل به المستشرق الألماني جورج جاكوب، فقد جمع هذا المستشرق إحدى وعشرين قصيدة للفاتح من قصائده التي كانت متناثرة في تذاكر الشعراء العثمانيين، ووجد جورج جاكوب مجموعة خطية لأشعار الفاتح ضمن مجموعة في مكتبة أوبسالا الملكية، وكوَّن منها ديوانًا للفاتح نشره في برلين عام ١٩٠٤م.

ومن نماذج أشعار محمد الفاتح:

«أنا عبد لسلطان من عبيده

سلاطين هذه الدنيا،

ونور شمسه يُبهر الضحا،

وإذا ما قتلني بالسهم أو أهداب العيون،

فسواء على القتيل فتكه الحسام أم قتله السهام».

وترجم الدكتور/ حسين مجيب من شعر الفاتح قوله:

«هذا البستان إلى ذوي وذبول،

وإذا ما وافى الخريف فلا ربيع ولا رياض،

أنا ران شاهدت هذا الجميل ضاع الزمام من يدي فغلبت عليَّ تقواي وزهدي،

ألا لا يغرنَّكُ هذا الحسن يا من تتيه علينا بالحسن،

ومتى دام للجميل جمال؟ فالوفاء لنا الوفاء[1].

---

(١) «تاريخ الأدب التركي» حسين مجيب المصري ـ القاهرة ١٩٥١م.

ومن شعر السلطان محمد الفاتح الذي أورده عبد الوهاب غرام الذي أورده في (مجلة الرسالة ـ ١٠٣٣م) تحت عنوان: (طُرَف من شعر السلاطين) قوله:

سيذهب البستان من اليد،

سيأتي الخريف وتذهب الحديقة والربيع من اليد،

أيها الحبيب! أوف بالعهد، ولا يغرنك الجمال والنضرة،

يا ملكي، قد جعلتني أسيراً في سلسلة طرَّتك،

ويا رب لا تحررني من هذه العبودية، جور الحبيب،

وطعان العدو، وحرقة الفراق، وضعف القلب،

لهذه الألوان من الآلام خلقتني يا رب!

قد اجتمع على إحراقي وهدمي،

حرقة القلب، ونار الآهات، ودمع العين».

ومن شعر الفاتح في الدعوة الإسلامية قوله:

نيتي: امتثالي لأمر الله، وجاهدوا في سبيل الله،

وحماسي: بذل الجهد لخدمة ديني، دين الله،

وعزمي: أن أقهر أهل الكفر جميعاً بجنودي جند الله،

وتفكيري: منصب على الفتح، على النصر على الفوز، بلطف الله،

وجهادي: بالنفس وبالمال، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله،

وأشواقي: الغزو والغزو مئات الآلاف من المرات لوجه الله،

ورجائي: في نصر الله، سمو الدولة على أعداء الله[1] .

(١) د/ محمد حرب «العثمانيون الحضارة».

محمد الفاتح والإنجازات الإدارية

أنجز محمد الفاتح إنجازات إدارية لا تقل أهميتها عن إنجازاته العسكرية وفتوحاته، نأخذ منها ما يلي:

١ - العلم والعلماء:

ومن خير ما أسداه السلطان محمد الفاتح، ما ابتدعه من التنظيم والتنسيق في درجات العلماء ومراتبهم والتمييز بين المناصب والوظائف العلمية كالتدريس والقضاء، وقد جعل التدريس نفسه درجات، وكذلك القضاء درجات، فلا يشغل وظيفة من هذه الوظائف إلا من ثبتت كفايته وأهليته لها.

وكان يحتفظ بسجل خاص في قصره يثبت فيه أسماء العلماء ومنزلة كل منهم في العلم وماله من كفاية وانتاج، فإذا ما خلا منصب من المناصب الكبيرة في الدولة رجع إلي هذا السجل واختار لهذا المنصب الشاغر أصلح العلماء له.

٢ - التنظيم الإدراي:

وضع السلطان محمد الفاتح قانونًا لتنظيم شئون الإدارة الداخلية وتنظيم اختصاصات كبار رجال الدولة وبعض التقاليد والمراسيم، ولقب من أجله بـ (القانوني) غير أنه لم يشتهر به اشتهاره بلقب (الفاتح)، وقد أظهر الفاتح في الناحية الإدارية كفاية ومقدرة كما كان في الناحيتين السياسية والحربية.

وقد كان أول ما قام به عقب توليه السلطنة، أن عزل الموظفين القدماء غير الأكفاء، وجعل مكانهم الأكفاء، واتخذ الكفاية وحدها أساسًا في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته، واهتم بالناحية المالية، فوضع القواعد المحكمة الصارمة في

جباية أموال الدولة وقضى على إهمال الجباة وتلاعبهم مما كان يضيع على الدولة ثلث إيراداتها[١].

٣ ـ العدالة:

كان السلطان محمد الفاتح شديد الحرص على إجراء العدالة الدقيقة الحازمة في كل جزء من أجزاء مملكته، شديد الحرص على تحقيق الرفاهية والرخاء لجميع رعاياه.

ولكي يستوثق السلطان الفاتح من هذا الأمر كان يعهد بين الفينة والفينة إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجول أو التطواف في أرجاء البلاد العثمانية ويمنحهم ـ بمرسوم مكتوب يبين مهتهم ـ السلطة المطلقة في التنقيب والتحري والاستقصاء لكي يطلعوا كيف تساس أمور الدولة، وكيف يجرى ميزان العدل بين الناس في المحاكم، وقد مَنَحَ هؤلاء المبعوثين الحرية الكاملة في تسجيل ونقد ما يرون، ثم يرفعون ذلك إلى السلطان الفاتح.

وقد كانت تقارير هؤلاء المبعوثين النصارى تشيد دائمًا بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدِّقة بين الناس بدون تمييز أو محاباة، مما يبشِّر باطراد وانتشار الرفاهية والسعادة، بل إن السلطان الفاتح عند خروجه إلى بعض الغزوات كثيرًا ما كان يتوقف في بعض أطراف مملكته ويأمر بنصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته[٢].

---

(١) محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٣٥٢)، ط. البشير مصر.

(٢) صولاق زاده تاريخي.

وأدرك السلطان محمد الفاتح الصلة الوثيقة بين الدين والعدالة، وأن رجال الفقه والشريعة هم أعرف الناس بالعدالة، وأبصرهم بمواقعها، وأحرصهم على إنفاذها.

وقد عنى الفاتح عناية خاصة برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل في أمور الناس، فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين في الفقه والشريعة، والاتصاف بالنزاهة والاستقامة وحسب، بل لابد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع تجله واحترام بين الناس، وأن تكفي مؤونتهم المادية كفاية تامة سدًا لسبل الإغراء والرشوة، فوسَّع لهم في المعيشة، وأحاط منصبهم بهالةٍ مهيبة من الحرمة والجلالة والقداسة مساسها على الناس.

وقد حدث أن أحد غلمانه ظهر منه بعض الفساد بأدرنة، فأرسل إليه القاضي بعض الخدم لمنعه فلم يمتنع، فركب إليه القاضي بنفسه فاعتدى عليه الغلام وضربه ضربًا شديدًا، فما إن سمع السلطان الفاتح بذلك حتى أخذه الغضب واستطار به، وأمر بقتل ذلك الغلام لتحقيره نائب الشريعة، وتشفع الوزراء للغلام لدى السلطان الفاتح فلم يقبل شفاعتهم، فالتمسوا من المولى محيي الدين محمد أن يصلح هذا الأمر لدى السلطان، ولكن الفاتح أعرض عنه ورد كلامه.

فقال له المولى محيي الدين: إن النائب (أي القاضي) بقيامه عن مجلس القضاء بسبب الغضب سقط عن رتبة القضاء، فلم يكن هو عند الضرب قاضيًا، فلم يلزم تحقير الشرع حتى يحل قتله (قتل الغلام) فسكت السلطان محمد خان للعفو عنه، فأحضر السلطان محمد خان عصا كبيرة فضربه بنفسه بها ضربًا شديدًا حتى مرض الغلام أربعة أشهر، فعالجوه فبرئ ثم صار ذلك الغلام وزيرًا

للسلطان بايزيد خان، واسمه داوود باشا، وكان يدعو للسلطان محمد خان (محمد الفاتح) ويقول: «إن رشدي هذا ما حصل إلا من ضربه»[١].

أما القاضي المرتشي، فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل.

٤ - تتبعه لمجريات الأمور:

وكان السلطان الفاتح برغم اشتغاله بالحروب والفتوحات التي لا تكاد تنقطع، يتتبع كل ما يجري في أرجاء دولته بيقظة واهتمام لا تكاد تفلت من نظره صغيرة ولا كبيرة، وأعناه على ذلك ما حباه الله من ذكاء قوي، وبصيرة نافذة، وذاكرة حافظة، وجسم قوي مفتول لا ينال منه الإعياء والكلال، وكان كثيرًا ما يعس بالليل ويجوب الطرقات والدروب ليتعرف أحوال الناس بنفسه، ويتسمع إلى شكاياتهم.

كان الصدر الأعظم محمود باشا قد ارتفعت منزلته لدى السلطان الفاتح بعد بلائه العظيم في فتح جزيرة نيجربون، ولكن الفاتح ما لبث أن تجهم له وغضب عليه حينما علم أن وزيره يتغاضى عن نصوح بك ويتغافل عنه ويتستر عليه بالرغم من ظلمه وشروره في البلاد التي يحكمها بحدود ألبانيا، وقال له الفاتح:

«فإذا لم يكن لك علم بأفاعيل نصوح بك كنت غافلاً عن أحوال البلاد، وإذا كنت على علم بها وأغضيت عنه وقعدت عن عقابه كنت عونًا له على الشرِّ والخيانة في حق البلاد، وإن الغفلة مفسدة للوزارة وإذا لم يكن الوزير يقظًا

---

(١) «الشقائق العثمانية في علماء الدولة العثمانية» طاش كبرى زاده.

مصلحًا في إدارة الأمور لم يكن ظهيرًا للسلطان وعونًا له فيما يعمل لجلب الخير والرفاهية للرعية والعمران للبلاد».

واستدعى السلطان الفاتح من فوره نصوح بك إليه، فأدبه بنفسه وقوم اعوجاجه»[1].

وقد قرن السلطان الفاتح هذه الإدارة الحازمة اليقظة بأعمال إنشائية واسعة النطاق في أرجاء مملكته، سواء فيما يتعلق بالأغراض الحربية أو السلمية، فأنشأ دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية من البلاد، وأدخل إصلاحات في الجيش.

ويمتاز الفاتح عمن سبقه من السلاطين أنَّه إلى جانب اهتمامه وعنايته بتنظيم وتنمية الجيش البري؛ أولى اهتمامًا كبيرًا وعناية عظيمة للقوة البحرية، وقد أدرك عظم خطورة هذه القوة وشدة الحاجة إليها منذ أزمع على حصار القسطنطينية؛ إذ رأى أنها لا غنى عنها لإحكام حصار هذه المدينة وتطويقها برًا وبحرًا.

نعم . . سبق لبعض سلاطين آل عثمان أن أنشأوا سفنًا أغير بها على بعض السواحل، ولكن لم تكن هناك عناية خاصة بالأسطول.

٥ - عنايته بالأسطول البحري:

أدرك السلطان الفاتح أن الاهتمام بالأسطول أمر لابد منه، وعنصر لا غناء عنه؛ لمد فتوحاته والمحافظة على سلامة حدود دولته المترامية التي تواجه البحر من أنحاء كثيرة، كما علم من قراءته لتاريخ الأمم القديمة مدى ضرورة القوة البحرية لقوة الأمة وعظمتها، فكان ذلك يزيده إقبالاً على العناية بالأسطول.

---

(١) «تاريخ خير الله أفندي»، وانظر: «الفاتح» للرشيدي.

وقد شاهد بنفسه ما وصلت إليه الدول الإيطالية، وخاصة البندقية من عظمة وقوة وثراء ورخاء بفضل أسطولها القوي الذي يجوب البحار، ومن ثم لم يدخر السلطان الفاتح وسعًا في سبيل تنمية القوة البحرية، وإدخال التحسينات والتقدم عليها، فأمر باتخاذ سفن جنوا البندقية - أكبر الدول البحرية في ذلك العهد - نماذج تبنى على مثالها السفن العثمانية، وعندما وجد في سينوب سفينة ضخمة نادرة المثال، أمر بأخذها وبناء السفن على نمطها مع إدخال التحسينات عليها، ولهذا الاهتمام البالغ والعناية الفائقة التي أبداها السلطان محمد الفاتح والتقدم الذي أحرزته القوة البحرية في عهده، فَعدَّهُ المؤرخون مؤسسًا للأسطول العثماني[١].

٦ - التجارة والصناعة:

اهتم السلطان الفاتح بالتجارة والصناعة، وعمل على إنعاشها بجميع الأسباب والوسائل، وكان في ذلك يقتدي بسلفه من الآباء العثمانيين، الذي كانوا دائمًا على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم، وإن كثيرًا من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهارًا كبيرًا عندما خلَّصها الفتح التركي مما أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التي عرقلت نهضتها وشدَّت حركتها.

ومن هذه المدن (نيقية) التي سلمت لأورخان ١٣٣٠ بشروط ملائمة جدًا بعد حصار طويل، وكان العثمانيون كالرومان القدماء مهرة في إنشاء الطرق والكباري مما سهَّل التجارة في جميع أنحاء الدولة، وقد اضطرت الدول الأجنبية إلى السماح بفتح موانيها لتجار الإغريق، وكانوا قد منعوا من دخولها في عهد

---

(١) «حقائق الأخبار عن دول البحار» الأميرال إسماعيل سرهنك.

الأباطرة البيزنطيين، ذلك أنهم قد أصبحوا في تلك الحالة يجرون في ظل الراية العثمانية، وقد اتخذوا زي الأتراك اللذين كان الكاثوليكيون يرفضون دائمًا حتى ذلك الحين أن يمنحوهما أفراد الكنيسة الإغريقية[1]، وكان من أثر ذلك أن عمَّ الرخاء وساد اليسر والرفاهية في جميع أرجاء المملكة، وفي عهد الفاتح ضربت النقود الذهبية لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية.

٧ - بناء الأعمال المعمارية:

أثبتت الأعمال المعمارية الرائعة التي تمت في عهد الفاتح، أن هذا السلطان على مستوى عالٍ من التفكير الحضاري، فتحويل كنيسة أياصوفيا إلى مسجد على أُسس معمارية إسلامية راقية، وبناؤه العديد من المساجد التي اعتبرت تحفًا فنية معمارية، وإنشاؤه المدارس والمكتبات والحمامات والمستشفيات بكثرة لم تشهدها العاصمة، وقصره الرائع بها وقلعة الأبراج السبعة الرهيبة، التي أضحت جزءًا من السجن السلطاني؛ حيث كان يسجن فيها السلاطين الذين يُخلعون عن العرش ليقضوا فيها بقية حياتهم، وأحواض بناء السفن ودور الصناعة . . كل هذا يدل على مقدرة تركية فذة للأخذ بالحضارات والاقتباس منها وإدخال التحسينات عليها.

وقد أكثر الفاتح من إنشاء المباني العامة والطرق والجسور في أرجاء مملكته، وأنشأ في القسطنطينية كثيرًا من المساجد والمعاهد، والقصور والمستشفيات، والخانات والحمامات، والأسواق الكبيرة، والحدائق العامة، وأدخل المياة إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة.

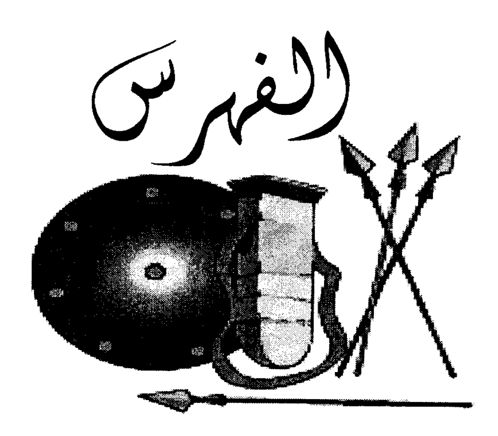
---

(١) توماس أرنولد «الدعوة إلى الإسلام».

وفاته

مضى موكب الرجل العظيم عبر رحلة الزمان القصيرة، فلم يعمر سوى اثنتين وخمسين عامًا، حكم فيها الدولة العثمانية ما يزيد على الثلاثين عامًا، ففي أول الربيع من عام (٨٨٦هـ/ ١٤٨١م) غادر السلطان محمد الفاتح إلى أسيا الصغرى، حيث كان قد أعدّ في إسكدار جيشًا كبيرًا، وكان السلطان الفاتح قبل خروجه من عاصمة ملكه، قد انتابته وعكه صحية، ولم يحفل بها، وخرج لقيادة جيشه بنفسه، وقد كان من عادته أن يجد في خوض غمار المعارك شفاء لما أَلَمَّ به من أسقام وأمراض، غير أن المرض هذه المرة تضاعف واشتد وثقلت وطأته عقب وصوله إلى إسكدار، فاستدعى أطباءه، غير أن الأجل كان قد استوفى، فلم ينجح في مواجهته طب ولا غيره، ومضت روحه إلى بارئها، وكانت وفاته في يوم الخميس الرابع من ربيع الأول (٨٨٦هـ/ ٣ مايو ١٤٨١م) وهو في الثانية والخمسين من عمره، بعد أن حكم نيفًا وثلاثين عامًا، وانتشر النبأ كالصاعقة، فانتاب الناس حزن شديد.

رحم الله الفاتح، فقد كان رجلاً عظيمًا في جراءته وشجاعته وغيرته على دينه ووطنه، وكان من خيرة أمراء زمانه إدارة وحكمًا وخلقًا وحلمًا وعلمًا وحكمة سياسية رائعة، فقد دانت له الدول، وخضع له أمراء وملوك الأرض.


الفهرس

فهرس

الموضـــوع	صفحة